مذكرات غيرترود بل في جبل الدروز

ترجمة وتحقيق

كمال الشوفاني



مذكرات غيرترود بـل
الى جبل الدروز

عنوان المحقق
Kamalsho@hotmail.com
00963 16 233631
جوال 00963 944783280

الطبعة الاولى : ٢٠٠٨

دار العوام للنشر والتوزيع

دمشق ص.ب: ٥٦٥٨ ـ جوال: ٠٩٣٣٧٦٠٥٧١
Alawam1925@gmail.com

مذكرات غيرترود بـل
الـى جبل الدروز

ترجمة وتحقيق
كمال الشوفاني

مقدمة

عندما قرأت ذات يوم مقالا في إحدى الصحف عن تلك المرأة التي ساهمت في إنشاء مملكة العراق عام ١٩٢١، وعاشت في البلاط الملكي كملكة غير متوجة، لم يخطر لي أنها زارت بلادنا في أحد الأيام وكتبت عنها في مذكراتها. زارت الآنسة " غيرترود بل" هذه المنطقة قبل إنشاء المملكة العراقية بعشرين عاما، وسرت كثيرا بتلك الزيارة إلى درجة أنها رغبت بالعودة إليها بعد خمس سنوات. وبغض النظر عن الريبة التي ينظر بها إلى أولئك الرحالة والموظفون الأوربيون حول طبيعة المهام الحقيقية التي كانوا يأتون من أجلها إلى بلادنا، فإن الآنسة " بل" قدمت في رسائلها ومذكراتها وصفا رائعا لطبيعة أرضنا بحقولها الجميلة، وجبالها الشاهقة وجوها اللطيف وبيوتها الصلبة التي بناها أصحابها فوق بقايا الحضارات التي تعاقبت على سكنى هذه الأرض.. أما أبناء المنطقة فكانوا بشجاعتهم وتوقهم إلى الحرية خير أناس يعتمد عليهم في الشدائد، لذلك اختارت " بل" أن تكون تحت رعايتهم في تينك الرحلتين.

ولا بد من الإشارة إلى أمر هام حول ترجمة هذا الكتاب؛ فقد اضطررت إلى أن أجمع بين مذكرات " بل" ورسائلها معا لتقديم وصف كامل ومفصل عن رحلتيها إلى جبل الدروز. لقد وجدت أن

ما كتبته في مذكراتها لم يكن سوى ملاحظات سريعة حول ما شاهدته وعايشته في رحلتها، أما الرسائل التي كانت ترسلها بشكل شبه يومي إلى أمها (في الحقيقة هي زوجة أبيها) فكانت أكثر تفصيلاً للأحداث، رغم أنها أغفلت أمورا شتى ذكرتها في المذكرات، وهذا ما جعلني أجمع بين المذكرات والرسائل معا. أما الصياغة فتركتها كما كتبتها " بل" في مذكراتها، إذ أنها لم تختلف أبدا عن أسلوبها في كتابة رسائلها. أما بصدد موضوع الهوامش التي أضفتها إلى الكتاب فقد وجدت من واجبي إلقاء الضوء على الشخصيات التي قابلتها " بل" في رحلتيها وخصوصا تلك التي لم تشر إليها " بل" بالاسم أو لم تذكر اسمها الكامل، وقد عملت على هذا وقتا طويلا حتى توصلت إلى معرفة معظم الشخصيات المذكورة وتركت بعض الشخصيات دون تعريف لعدم وضوح هويتها بدقة من قبل الرحالة. كما أشرت إلى بعض الأماكن غير المعروفة أو المنسية، كالمواقع الأثرية والخرب المنتشرة في كل مكان. وفيما يتعلق بالحواشي الخاصة بالمؤلفة فهي نادرة جدا، وقد وضعتها بين قوسين في سياق الكلام تماما كما وضعتها المؤلفة. كذلك فقد أضفت إلى المذكرات صورا التقطتها " بل" بنفسها للأماكن والأشخاص، وتركت التعليق عليها كما خطه قلمها، مع تعقيب على بعض الصور للتوضيح فقط. لقد رسمت الرحالة

"غيرترود بل" صورة واضحة للحياة السياسية والانثروبولوجية والاجتماعية للجبل في مطلع القرن العشرين، وألقت الضوء على العلاقة التي كانت قائمة بين السلطة وأبناء الجبل، وأظهرت مدى تمردهم على الدولة وعدم إكتراثهم بها، حتى أن زعيمهم يحيى بك قال لها: " لا يوجد هنا حكومة وبإمكانك الذهاب أنّى شئت ". وبينت كم كانت معجبة بالناس وكم أدهشها حبهم للمعرفة واهتمامهم بأخبار العالم، ليس فقط المحيط بهم، بل من أوروبا إلى اليابان، رغم عدم توفر وسائل الإعلام في ذلك الزمان. " إنهم خبيرون إلى حد كبير بشؤون العالم، و كما هي العادة عند الدروز، فهم دائما على معرفة جيدة بما تجري عليه الأمور في كل بقاع الأرض ". وقد عبّرت عن إعجابها الشديد بعلاقة الرجل بالمرأة و احترامه لها، وهو أمر غاية في الأهمية يضع مجتمعنا في مصاف الشعوب المتحضرة منذ زمن بعيد " الرجال يعاملونهن بكل احترام – حتى عندما يكون الطين قد يصل لأكواعهن. أليس هذا بغاية الروعة !؟"

بقي أن أقدم شكري الكبير لكل من ساهم في انجاز هذا العمل من أبناء وأقارب الشخصيات المذكورة في الكتاب، ولكل من شجعني ووقف بجانبي لإنجاز عملي الأدبي الأول.

كمال الشوفاني

السويداء ٢١/آذار/٢٠٠٨

من هي غيرترود بل

ولدت غيرترود مارغريت لوثيان بل في ١٤ تموز ١٨٦٨ في واشنطن هول، كاونتي دورهام بانكلترا، لأسرة صناعية ميسورة الحال. يعود الفضل إلى والد بل لانفتاحه ولتوفير التحصيل العلمي لها، والذي لم يكن لفتاة في ذلك الزمن، فأنهت دراسة التاريخ في جامعة أوكسفورد بدرجة امتياز عام ١٨٨٨.

كانت رحلة بل الأولى إلى الشرق في عام ١٨٩٢ عندما كان عمها السير فرانك لاسلز وزيرا مفوضا في السفارة البريطانية في طهران، فسافرت إلى إيران لزيارته. وقد وصفت زيارتها تلك في كتابها الأول (صور فارسية). وأمضت العقد التالي من حياتها تتجول في أصقاع الأرض، مارست خلاله صعود الجبال في سويسرا ودراسة علم الآثار، كما تعلمت لغات عديدة كالعربية والفرنسية والألمانية والايطالية والفارسية والتركية.

عادت ثانية إلى الشرق أواخر عام ١٨٩٩، فزارت فلسطين وسورية (سورية و لبنان وشرق الأردن) وقد حطت الرحال أولا في القدس حيث ثابرت على تعلم اللغة العربية قبل أن تنتقل إلى شرق الأردن وتزور البتراء وشمال الأردن حتى وصلت إلى مشارف جبل حوران، وقامت برحلتها الأولى إلى الجبل (موضوع

الجزء الأول من كتابنا) قبل أن تتجه إلى دمشق، فشمال سورية عائدة إلى أوروبا. وبعد خمس سنوات عادت إلى المنطقة بعد أن غدت أكثر خبرة في شؤون هذه البلاد، وأتقنت اللغة العربية اتقانا جيدا. كانت وجهتها الأساسية هي جبل الدروز مرة أخرى، وقد تمكنت هذه المرة من أن تتجنب الاحتكاك بالأتراك لتجد طريقا سالكة إلى الجبل دون خوض المفاوضات العقيمة معهم. وكان لها ما أرادت، رغم أن الرحلة هذه المرة جرت في ظروف طبيعية قاسية وسط الثلوج والصقيع والأجواء الباردة. وثم غادرت بل الجبل إلى المناطق السورية المختلفة من دمشق حتى الشمال وصولا إلى الأراضي التركية. ودونت مشاهداتها في تلك الرحلة في كتابها (الصحراء و المعمورة) عام ١٩٠٧ .

في عام ١٩٠٧ قامت بل برحلتها إلى تركيا وبدأت العمل مع عالم الآثار المعروف السير وليام رامسي وقد سجلت الكشف الأثري الذي قاما به في كتابهما المشترك (ألف كنيسة و كنيسة).

وفي عام ١٩٠٩ توجهت بل إلى بلاد الرافدين، فزارت المدينة الحثية كركميش، واستكشفت قصر الأخيضر ثم ذهبت إلى بابل والنجف. وعادت إلى كركميش حيث عملت مع أثريين كان أحدهما ت. ي. لورنس (لورنس العرب) وقد سجلت رحلتها تلك في كتابها (من مراد إلى مراد).

أما رحلتها إلى الجزيرة العربية عام ١٩١٣ فكانت مميزة جدا؛ فقد كانت ثاني امرأة أجنبية تزور حائل بعد السيدة آن بلنت.

وفي عام ١٩١٤ بدأ فعليا عملها السياسي عندما أرسلت إلى البصرة لمساعدة الجيش البريطاني في دخول بغداد. فرسمت لهم الخرائط المطلوبة لأماكن كانت تعرفها جيدا خلال زياراتها السابقة. وعندما دخل الجيش الانكليزي بغداد في أول آذار ١٩١٧ أوكل إليها وظيفة رسمية من قبل المفوض بيرسي كوكس ومنحت لقب سكرتيرة الشرق. وفي عام ١٩٢١ اختيرت مع مجموعة من المستشرقين بينهم لورنس من قبل ونستون تشرشل للمشاركة في مؤتمر القاهرة الذي تمخض عنه قرار إنشاء مملكتين هاشميتين في كل من شرق الأردن والعراق. فسعى لورنس لإنشاء المملكة في شرق الأردن يكون على رأسها عبد الله بن الحسين، أما بل فكانت موكلة بتقديم الدعم لشقيقه فيصل لاعتلاء عرش العراق.

وخلال وجودها في العراق عاشت بل في القصور الملكية، وكانت المستشارة الأولى للملك فيصل ولقبت بألقاب عديدة منها (الخاتون) و (ملكة العراق غير المتوجة). وبعد مغادرة السير بيرسي كوكس بغداد، لم تعد بل تتمتع بنفس القوة والأهمية، إذ خلفه السير هنري دوبس الذي قلل من اعتماده عليها فغادرت إلى لندن عام ١٩٢٥، لكنها صدمت ببعض المشكلات العائلية هناك

فقررت العودة إلى بغداد. وكانت قد أنشأت المتحف الوطني في بغداد.

في صباح يوم الاثنين ١٢ تموز وقبل يومين من عيد ميلادها الثامن و الخمسين وجدت " بل" ميتة وإلى جانبها علبة حبوب منومة، وقيل إنها تناولت جرعة زائدة منها أودت بحياتها.

مؤلفات غيرترود بل

١- صور فارسية
٢- الصحراء و المعمورة (١٩٠٧)
٣- ألف كنيسة و كنيسة ، مع السير وليام رامسي (١٩٠٩)
٤- من مراد إلى مراد (١٩١١)

ولها مذكرات ورسائل أرسلتها إلى ذويها طيلة فترة ترحالها الطويلة، إضافة إلى آلاف الصور التي التقطتها بنفسها للأماكن التي زارتها والناس الذين التقتهم في حياتها.

مذكرات الرحلة الأولى

الى جبل الدروز

١-١١ أيار ١٩٠٠

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٩٩، غادرت غيرترود بل لندن متوجهة نحو الشرق مرورا بفرنسا عبر القنال الانكليزي، وقد انطلقت من شاطئ المتوسط في مرسيليا، ثم ركبت البحر إلى ايطاليا وعرجت على تركيا فسواحل لبنان ثم فلسطين، حيث أقامت في ربوعها فترة من الزمن تعلمت فيها اللغة العربية. ثم جابت أراضي شرق الأردن ووصلت إلى أطراف الجبل الغربية عن طريق بصرى الشام في غرة شهر أيار عام ١٩٠٠.

<u>الثلاثاء ١ أيار ١٩٠٠ / بصرى الشام</u>

دخلنا بصرى في الساعة الرابعة، وبدأت فوراً في التقاط الصور. قادنا الطريق الروماني مباشرة إلى البوابة الغربية الرائعة المسماة (باب الهوى). ودخلنا من هذه البوابة إلى مسافة تزيد على ربع ميل عبر خرائب يصعب السير خلالها: جميع البيوت كانت مهدمة تماما، والحجارة المقصبة الجميلة المستخدمة سابقا في البناء كانت ملقاة على الطريق إلى حد يصعب فيه تمييز مكان الطريق عن مكان البيوت. ثم مررنا بعدة بيوت للفلاحين بنيت بطريقة بدائية فوق الخرائب، فوصلنا أخيرا إلى ساحة وقوس نصر آخر، ممرات عظيمة مهدمة وتحف بها بعض الأعمدة الكورنثية من بقايا

معبد. إلى اليسار كان هناك مسجد بني على أنقاض كنيسة، كانت بنيت بأحجار معبد قديم في نفس المكان. صعدت إلى برج المئذنة، وألقيت نظرة على البلدة – أعمدة وأبراج مربعة سوداء فوق كل كنيسة مهدمة ومسجد، وتراءت لي القلعة الكبيرة وأحجار متساقطة لا تحصى. ثم انضم إلينا شخص لطيف هو المأمور، ورافقني خلال جولتي صعودا ونزولا إلى أسطح الكنائس وفوق الجدران المنهارة والبيوت المهدمة. كانت الكتابات منتشرة في كل مكان: باللاتينية، واليونانية، والكوفية والعربية. كانت الحجارة المنقوشة تزين أبنية الفلاحين لكنهم بنوها مقلوبة (رأسا على عقب)، إلى جانب البلاطات الحجرية التي كانت نوافذ، وأجزاء من الأعمدة وتيجانها. بعد ساعتين من الطواف، شعرت بشيء من الصداع والتعب والجوع، لكن المأمور استمر بنبله مرافقا لي ورغب بأن يدلني على بركة ضخمة (كالبحر كما قال قائد بغالي) وقرب إحدى زواياها كان هناك مسجد مهدم، يعتقد المأمور أنه كان لأحد الأشخاص المرموقين، وربما لأحد القناصل. ثم اصطحبني إلى أعلى القلعة لأرى مشهدا عاما للبلدة (كان ذلك رائعا في وقت اقتراب الغسق) وعرفني إلى رئيس العسكر الذي قدم لي كرسيا وقهوة على السطح، وبعد ذلك كؤوسا من العرق والماء في غرفته في الأسفل. كان المأمور بيروتيا يتكلم العربية، أما الآخرون فكانوا

أتراكا، كنا نتفاهم باللغة الفرنسية رغم صعوبتها عليهم. وأخيرا استأذنت منهم لكي أغادر إلى خيمتي قرب سور القلعة. فوجدت المدير (حاكم البلدة) بانتظاري، وهو رجل عربي أنيق يوحي بالاحترام، بعكس الضباط الأتراك المتشدقين. تبادلنا التحيات، تناولت عشائي وأويت إلى فراشي.

الأربعاء ٢ أيار ١٩٠٠ / بصرى الشام

أطل المأمور عند الثامنة صباح هذا اليوم وصحبني إلى قرية خربة تقع شمال البلدة. ذهبت أولا لرؤية المدير فوجدته جالسا في فناء بيته. قدم لي القهوة، وتبادلنا الحديث:

سألني : " ما هي وجهة رحلتك ؟ "

– " إلى دمشق الشام "

– " هناك طريق يمتد إلى الغرب يقودك إليها، تنتشر على جانبيه العديد من الآثار تستحق المشاهدة.

– " يا الله كم أنا بشوق لرؤيتها ،و لكنني أتمنى أولا زيارة صلخد" (قرية في قلب جبل الدروز ، يرغبون بأن لا أذهب إليها)

– " صلخد !؟ لا يوجد فيها شئ على الإطلاق، والطريق إليها خطر جدا. لا يمكن أن تذهبي إلى هناك "

– " لكن يجب أن أذهب إليها."

- " وصلت برقية من دمشق إلى إربد تحذر المتصرف من خطورة ذهابك إليها" (لم يكن ذلك صحيحاً). إن المرأة الانكليزية لا تخاف أبدا" (وهذا ليس صحيحاً أيضاً) ، " أريد مشاهدة ...." وأخبرته أخيرا بأنني لن أبرح هذه المنطقة هذا اليوم.

افترقنا. قال مودعا:

- " شرفتنا "

- " استغفر الله "

غادرنا أنا والمأمور متجهين إلى قرية تدعى خربا، وعبرنا جسرا رومانيا جميلا في طريقنا إليها. ولكني لم أجد فيها ما يلفت النظر، فتوجهنا شرقا نحو جمرين حيث صادفنا آثاراً لبعض البيوت الجميلة. كان أحدها مؤلفاً من طابقين، وكانت الطبقة الأولى مسقوفة بالحجارة. وكان لهذا البيت بوابة نحت على ساكفها (حنتها) رسومات لأشجار الكرمة، وفي الداخل إسطبل بمعالف حجرية تتسع لأكثر من عشرين رأسا من الخيل. لم يستخدم الملاط في بنائها لكن الجدران كانت مبنية بطريقة متقنة؛ كانت الحجارة مثلمة، ومتداخلة بعضها ببعض.

عدنا إلى بصرى نحو الحادية عشرة، وتوجهت إلى القلعة لأصور مدرجها الروماني (الصورة ١). ودخلت في متاهة من الممرات والدهاليز والغرف والأدراج. تناولت الغداء بعد أن زارني



صورة ١: بصرى اسكي شام ، مسرح في القلعة (منظر عام)

٢ أيار ١٩٠٠.

عدسة: غيرترود بل

صديقاي التركيان، ولكنهما لحسن الحظ لم يمكثا طويلا. وخلال وجودهما عندي رأيت أحد الشيوخ الدروز يتجول في الجوار، لكني لم أتمكن من التحدث إليه بوجود المسؤولين. ثم جاء أحد العربان ليسألني إن كنت بحاجة إلى من يرافقني نحو الشرق، لكني كنت أفضل أن أضع نفسي تحت حماية الدروز. أتمنى لو أستطيع الاتصال بالدروز لأكون بحماهم، فسيكون كل شئ على ما يرام. وإذا لم أستطع ذلك، فسأحاول أن أغادر هذا المكان مبكرا غدا وسأخلف لديهم شعوراً بالخيبة. سوف أتحرك بسرعة، وسيكون من الصعب على الأتراك اللحاق بي لأنهم يخافون الدروز كثيرا. ربما سأخفق– وحده الله يعلم بما سيجري. واستنتجت بأن التركيين لن يقفا بطريقي نكاية بالمدير العربي صاحب السلطة هنا. لكن المرء لا يعلم مدى صدقهما، لذلك فقد أبقيت خطتي طي الكتمان. فهم حتى الآن لا يعرفون أن غايتي ليست صلخد على الإطلاق بل بلدة أخرى إلى الشمال منها، لكني أعتقد بأنهم يعلمون. وسأحاول الذهاب إلى صلخد أيضا، لأن فيها قلعة جميلة.

لا يوجد دروز في بصرى. هربت من أصدقائي وتمشيت وحدي عصر هذا اليوم. (لم أعد أطيق البقاء معهم أبدا) وبعد تناولي الشاي، جاء المأمور لاصطحابي إلى غرفة الضابط في القلعة.

كان كلاهما مكتحل العينين، لكن زينتهما هذه لم تكن متقنة تماماً. كان أحدهم يحلق ذقن رئيس العسكر عندما دخلت، وثم حلق المأمور ذقنه أيضاً فيما كنت ارتشف قهوتي، ثم تناولنا العرق الممزوج بالماء. ثم خرجنا لنتمشى في البلدة، وقصدت أن يطول ذلك حتى مغيب الشمس كي أتجنب زيارة المدير. لم يحضر المدير وأملت بأنه لا يرغب في أن يعلم بدقة كل تحركاتي. كنت أتمنى ذلك. كنت أشعر بأن كلا منا يتآمر على الآخر.

تناولت العشاء مبكرا، و بينما كنت جالسة أقرأ في خيمتي سمعت صوت المدير:

- " وين راحت الست ؟ "

أطفأت ضوء الخيمة عندما دخل حنا ليخبرني بقدومه. وطلبت منه أن يبلغه بأنني كنت متعبة جدا وأنني نائمة. لكني سمعت حديثهما. قال حنا:

- " إن السيدة مستيقظة منذ شروق الشمس، وقد تجولت طيلة النهار مشيا أو على جوادها. وهي نائمة الآن "

- " هل ستغادر غدا ؟ "

- " لا أعلم بالضبط، أفندم "

- " أخبرها بأن تعلمني قبل أن تذهب إلى أي مكان "

- " أمر سعادتك، أفندم "

ثم غادر، لكن ليس قبل أن يجعلني أتأكد من نواياه بعدم السماح لي بالمضي قدما في رحلتي.

لقد علم أنني ذاهبة إلى صلخد، وعندما يعلم بمغادرتي، سيرسل جنوده خلفي بأسرع ما يستطيع. لذلك فقد قررت التوجه إلى الشمال، إلى عرى فقد قرأت في كتاب موريي أن رجلا درزيا ذا نفوذ كبير يعيش هناك. بالإضافة إلى أن الطريق يمر من جمرين التي أعرفها حيث أستطيع أن أجد طريقي منها. أطلعت خدمي على قراري. فحاول محمد أن يثنيني قائلا بأنني لو أخبرت المدير بذهابي إلى السويداء، شمال عرى، لما مانع لأنه يعلم بوجود جنود أتراك هناك. لكنني كنت قد درست الوضع جيداً، فما الحكمة من أن أخلص من سطوة أتراك هنا لأقع بين أيديهم ثانية هناك؟ علمت بأن محمد كان خائفا على حياته وبذل كل ما بوسعه ليمنعني من الذهاب. آويت إلى فراشي، لكني لم أنم كثيرا فحماستي للرحلة وصوت الكلاب منعاني من ذلك، كما أن البغال تملكها الهلع، وهرب حصاني مرتين مما سبب لي إزعاجا كبيرا.

الخميس ٣ أيار ١٩٠٠ / عرى – حبران

أيقظني حنا في الثانية صباحا وكان البرد قارسا. في الثالثة كنت جاهزة وبدأت الرحلة تحت سماء مرصعة بالنجوم المتلألئة. كان الجو شديد البرودة، وهو شعور مزعج بعد قضاء يوم حار

خلال النهار، حيث كنت أرتدي ثيابا صيفية خفيفة. كنت أمشي في الخيمة جيئة وذهابا متضرعة إلى الله ألا يطل أحد الجنود من فوق سور القلعة ويشاهد ضوء الفانوس ويحضر ليستكشف الأمر. ولحسن الحظ فان المدير كان يسكن في وسط البلدة. ثم بدأت النجوم تشحب والفجر يرسم خطوطه الأولى. وفي الرابعة غادرنا المكان. كان القلق يساورنا بأن نهتدي إلى طريقنا نحو الشرق خلال الظلام ونحن ندور حول أسوار البلدة. لم أكن أعرف هذا الجزء من الطريق لأنني لم أشاهد إلا بدايته ونهايته. كانت البيوت تبدو بعيدة عنا ووجدنا أنفسنا نقتفي أثر أقدامنا خلال مرورنا قبل ذلك على هذا الطريق. وقد استغرق ذلك ساعة كاملة حتى وصلنا إلى شمال شرق البلدة وعثرنا على الطريق نحو جمرين. لم نشاهد سوى رجلين يقودان أبقارهما. في ذلك الحين بدا لون الغيمات ورديا، وبعد نصف ساعة أصبح لونها ذهبيا حيث أشرفنا على خرائب جمرين، ثم بزغت الشمس لحظة مرورنا قربها، وكان علينا أن نجد طريقنا من خلال الخريطة التي بحوزتي. لم يكن الأمر صعباً لأننا نسير على الطريق الروماني كدليل لنا. ولكن آه، كانت أول قرية درزية ما تزال بعيدة عنا. كان محمد يرتجف خائفاً من أن يصادفنا أي درزي أو تركي. ولكنني كنت أخاف الثاني فقط خوفاً شديداً. كنت أشعر بالذهول إزاء المشهد غير العادي لجبل

حرمون (الشيخ) حين كان الفجر يلامس ثلوجه البيضاء. بدأ الطريق يصعد شيئا فشيئا؛ بحيث لم نعد نتمكن من رؤية شي أمامنا سوى قمة حقل ذرة بيضاء، وقرية يغمرها السواد تمنيت أن نجد فيها دروزا ولكنها لم تكن سوى أطلال قرية مهدمة اسمها – دير الزبير. شاهدنا رجلا في حقل الذرة، بعمامة بيضاء وكوفية سوداء يرتديها الدروز، وحييته على الطريقة الدرزية " السلام عليك يا ابن عمي". ودلنا على الطريق الذي كنا قد ضللناه. وأخيرا وصلنا إلى قمة آخر حقل ذرة يمتد فوق تلة. شارفنا على منطقة تبعثرت قراها بين هضاب بركانية وخلفها تلال أكثر ارتفاعاً وكانت قمة القليب تعلو على الجميع - (القلب الصغير) أعلى قمة في جبل الدروز.
وبدت أمامنا وعلى بعد لا يزيد عن نصف ميل قرية المجيمر الكبيرة، فأسرعت الخطى. ووجدنا على سفح التلة التي بنيت عليها تلك القرية بركة ماء حولها أشجار تين. كانت النسوة يملأن جرارهن الخزفية من ماء البركة. نسوة درزيات يرتدين تنانير زرقاء وحمراء ويغطين رؤوسهن ووجوههن بمناديل بيضاء من الموسلين. وقرب الماء وقف شاب جميل الطلعة في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر. ترجلت لأسقي حصاني فتقدم الشاب (وكان اسمه نصرالدين) وأخذ بيدي وقبلني علي وجنتي، وسط دهشة عارمة مني. وهرع نحوي رجال آخرون وصبية وصافحوني.

كانت ملامحهم وسيمة وكذلك ملامح النسوة عندما يكشفن عن وجوههن. كانت عيون الجميع كبيرة مكحلة رجالا ونساء على السواء. وكانوا داكني البشرة ، ذوي طلعة بهية، مفعمين حيوية ورشاقة، تبدو عليهم علائم الذكاء وتشع منهم جاذبية غير عادية. سألت نصر الدين عما إذا كان باستطاعته أن يرشدنا إلى طريق عرى فاعتذر وقال إنه مشغول، وأن الطريق لا يستغرق أكثر من نصف ساعة، وهكذا انطلقنا. وبعد أن سرنا مسافة ربع ميل تبعنا نصر الدين وعبرلنا عن أسفه وعرض خدماته واضعا يدا على قلبه وأخرى على جبهته إشارة إلى الطاعة. وهكذا سرنا خلال المروج وفي حقول الذرة وعبر الكروم في بلد يزهو بتلاله الصغيرة، وانطلق قائد البغال يغني، فيما كان أصحاب العمامات البيض الذين يعملون في كرومهم يتوقفون للسلام علينا حينما نمر من أمامهم. وكنت أضحك في سري كلما تذكرت المدير وأولئك الأتراك الفظيعين.

وصلنا عرى عند الساعة الثامنة والنصف. كان هناك بعض الأشخاص، بدا لي أنهم من علية القوم يجلسون أمام منازلهم في أسفل التلة، رفعت يدي وألقيت عليهم السلام. فصافحوني ممسكين بكلتا يدي ورجوني أن أنزل عن حصاني لشرب القهوة معهم . كان هذا ما أريده لأني بحاجة إلى بعض المعلومات. سرنا

يدا بيد إلى أقرب منزل. وحينما دخلت سألوني: "هل أنت ألمانية ؟" وحين علموا أنني انكليزية سروا كثيرا وقالوا إني لست بحاجة إلى أن أعرف عن نفسي أكثر هنا. كانوا يرددون عبارة " ما شا الله، ما شا الله " ويجمعون المساند من حولي ليجعلوها مقعدا عاليا و وضعوا لي مسندا تحت قدمي وأحضروا ماء لأغسل يدي. ثم جلسوا في حلقة على الأرض النظيفة المفروشة بالبسط وبدؤوا بإعداد القهوة. كان ألطف شخص بينهم يدعى حمد حامد(١) جلس قربي ووضع يده على كتفي فيما هو يحدثني. وأخبرتهم عن قصتي بالتفصيل وكيف هربت من الحكومة وجئت إليهم وما حدث لي على الطريق وكان استقبالهم حاراً، وأكدوا لي بأنه لا يوجد حكومة هنا وبإمكاني الذهاب أنى شئت. سيكون من الصعب وصف المشهد الرائع ومشاعر الراحة والأمان والثقة التي منحوني إياها. سالوني عن الحرب وكانوا يعرفون أسماء كل الجنرالات والمدن، لقد كانوا

١- الشيخ حمد حامد (١٨٦٠؟ - ١٩٣٠) هاجر من بلدته حينة في جبل الشيخ الى عرى وتقرب من شبلي الأطرش وتزوج ابنته وأصبح من وجهاء قرية عرى. اعتقله سامي باشا الفاروقي عام ١٩١٠ مع زعماء الجبل وسجن في قلعة دمشق. فر من القلعة وأظهر بطولة نادرة في الهرب من السلطة وعاد الى بلدته. كان بين من نكل بهم كاربييه حاكم جبل الدروز بسبب مواقفه الوطنية المناوئة للانتداب الفرنسي. توفي عام ١٩٣٠ عن عمر ناهز السبعين عاما.

المراجع: تاريخ لواء حوران الاجتماعي، فندي أبو فخر، الطبعة الأولى، ص ٣٨٧. مقابلة شخصية مع السيد ماجد حامد – عرى في ٧ / ١٠ / ٢٠٠٧

أشخاصا مهذبين متحضرين. بعد أن قدموا لي القهوة (وكانت لذيذة بالفعل). سألت إن كان بإمكاني زيارة الشيخ.

فقال أحدهم: " شيخ !! إن يحيى بك هو زعيم كل الدروز على هذه الأرض، بالطبع يجب أن تزوريه "

سرنا صعودا إلى قمة الهضبة حيث يتربع بيت البيك ذو الشرفات المتعددة على جوانبه. كنا أنا وحمد نسير إصبعا بإصبع، وأخبرني بأن يحيى بيك سجن لمدة خمس سنوات في دمشق وقد أفرج عنه قبل ثلاث أسابيع خلت وطلب مني أن أعامله باحترام كبير. كان يحيى بيك [٢] مثالاً للسيد الاقطاعي، رجل كهل (في الأربعينيات أو الخمسينيات على ما أظن) أنيق ويتمتع بأخلاق رفيعة.

٢- يحيى اسماعيل الأطرش (١٨٦٢- ١٩١٤) شيخ مشايخ الجبل خلفا لشقيقه شبلي الأطرش (١٩٠٤ - ١٩١٤) سجن في دمشق من عام ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٠. غدر به سامي باشا الفاروقي قبيل غزوه للجبل عام ١٩١٠ فزجه في السجن بعد أن أعطاه الأمان . حكم عليه المجلس العرفي العثماني بالإعدام لكن الحكم استبدل بالنفي بعد أن قبض سامي باشا مبلغ ٣٠٠٠ ليرة ذهبية و خمسمئة نعجة . نفي الى جزيرة رودس حيث بقي فيها حتى عام ١٩١٢ حين احتلها الطليان فأطلقوا سراحه و توجه الى مصر. وبمساعدة الخديوي عباس حلمي أصدر الصدر الأعظم مختار باشا العفو عنه .

المراجع: جبل الدروز ،حنا أبي راشد، الطبعة الثانية، مكتبة الفكر العربي ١٩٦١، ص ١١٨. مذكرات سلطان باشا الأطرش، مجلة بيروت المساء العدد ٩٨، كانون أول ١٩٧٥، الحلقة الثانية ص ٣٢ . جبل العرب، صفحات من تاريخ الموحدين الدروز. حسن أمين البعيني، الطبعة الأولى، دار النهار،١٩٨٥، ص ٢٤٥

توجهنا مباشرة إلى غرفة الاستقبال حيث كان الشيخ يجلس على سجادة مع ستة أشخاص أو ثمانية يتناولون الطعام من وعاء كبير. أشار إلي أن أدخل الحلقة لأشاركهم الطعام، ففعلت، واستخدمت قطعة خبز رقيقة كملعقة.

كان الطعام لبنا وخليطا من الفاصولياء واللحم. كنت أريد أكل المزيد لكن يحيى بك انتهى من طعامه وخفت أن لا يكون من اللائق أن أستمر.

رفع الطعام وكومت المساند لي على الأرض كي أجلس وانتظرت حتى جلس ،فهو ملك كما تعلمون، وملك طيب جدا على الرغم من أن مملكته ليست كبيرة. كان علي أن أعيد حكايتي مرة أخرى وكان البيك يغمض عينيه الكبيرتين و يحرك رأسه بين الحين والآخر هامسا: هذا صحيح. أخبرته بكل ما أريد مشاهدته وأنني لا أريد رؤية السويداء بسبب وجود الأتراك فيها – كما يوجد فيها خط برقي أيضا وهو الأمر الأكثر خطورة. كان متعاطفا جدا معي ورتب لي جميع رحلاتي وأخبرني بأن أصحب نصر الدين معي وأن أعتمد على حمايته لي أينما ذهبت.

ثم حدثني بالتفصيل عن سجنه، وكيف أن شقيقه شبلي بك[٣] ما زال سجينا (لكني سمعت أنه سيفرج عنه قريبا) كان برفقته أحد الرجال المرموقين، وهو سليم نوفل أفندي[٤] بلحيته البيضاء الوقورة.

٣- شبلي الأطرش (١٨٥٠- ١٩٠٤) شيخ مشايخ الجبل خلفا لشقيقه إبراهيم باشا الأطرش (١٨٩٣ – ١٩٠٤) نقل مركز الزعامة الأولى في الجبل من السويداء الى عرى . تسلم عام ١٨٩٤ مهام قائمقام قضاء جبل حوران ، و حاول أن يحوز على رضا السكان دون أن يعادي الدولة تماما ، ففهمت الدولة موقفه الوسطي و أقالته بعد أقل من سنة . اعتقلته السلطات العثمانية ذلك العام و ألقت به في قلعة المزرعة ، لكن أهالي المقرن الغربي حاصروا القلعة و أجبروا الحامية على إطلاق سراحه . غدر به ادهم باشا عند دخوله السويداء في ٢١ / ١٠ / ١٨٩٥ و نفاه مع ٣٠٠ رجل من الجبل الى الأناضول ، و بقي أسيرا أكثر من خمس سنوات . شاعر مجيد تعتبر قصائده مرجعا تاريخيا لحوادث الجبل في تلك الأيام اعتمد عليها المؤرخون لما فيها من وصف دقيق لمجريات الأحداث ، و قد كتب معظمها و هو في سجنه بازمير . اختلف المؤرخون حول موقفه من الثورة العامية في الجبل ١٨٨٨ – ١٨٩٠ ، فمنهم من اعتبره من زعمائها في بدايتها و منهم من خالف هذا الرأي ، لكن قصائده تهجو العامية هجاء واضحا .

المراجع: (جبل الدروز ، مرجع سابق ص ١٠٤ . تاريخ لواء حوران الاجتماعي، مرجع سابق ص ٢٦٧- ٢٦٨. العامية والانتفاضات الفلاحية في جبل حوران، عبد الله حنا، الطبعة الأولى، دار الأهالي ، ١٩٩٠ ، ملحق ٢٥ بقلم : محمد طربيه ص ٣٦٤ – ٣٧٢ .

٤- سليم نوفل. درزي من حاصبيا. عين عام ١٨٩٨ من قبل السلطات العثمانية ممثلا عن الدروز في مجلس الادارة العثمانية بدمشق (ويبدو أنه كان بزيارة الى عرى لتهنئة يحيى بك بالعودة من الأسر).

المرجع: انتفاضات جبل الدروز، بيرجيت شبلر، الطبعة الأولى، دار النهار ٢٠٠٤ ، ص ١٥٦

شربنا القهوة ثم توجهنا لمشاهدة البناء الجديد الذي شيده البيك مكان الخرائب التي تركها الأتراك.

غرف ذات جدران حجرية جميلة وبلاطات حجرية على الطراز الروماني وبوابة منحوتة ومزخرفة. أشار علي سليم بأن أصور البيك (وهذا ما كنت أتمناه) طلبت منه الوقوف على الشرفة وبدا أمامي بكامل هيبته فصورته.(الصورة ٢). خرجنا أخيراً من بيت البيك وتوجهنا أنا وحمد حامد ومحمود رضوان الى المرج القريب (الصورة ٣) حيث كانت دوابي ترعى. ثم غادرنا القرية بصحبة نصر الدين وشاب يدعى عليا، لم أكن أعرف وظيفته بالضبط، ولكن بدا وكأنه رفيق سفر مقنع. كان نصرالدين دليلا ممتازا؛ لقد عرفني بأسماء كل القرى والخرائب والأسوار والينابيع والطرق متنقلا برشاقة لافتة أثناء سيرنا، بقمبازه المطرز فوق رداء ابيض. وفي طريقنا مررنا بجماعة من القرويين بحلات بهية اللون يحملون البنادق والسيوف. كانوا ذاهبين لتهنئة البيك على عودته بالسلامة. توقفوا لإلقاء التحية ورحبوا بي ترحيبا حاراً. يا له من تغير رائع بالمقارنة مع أولئك الذين كان همهم الوحيد أن يمنعونك من الذهاب إلى أي مكان. صعدنا تدريجيا إلى سلسلة من التلال ودلني نصر الدين على السهل الذي جرت فيه معركة قبل أربع سنوات؛ يقال أنه سقط فيها ٥٠٠ درزي و ١٢٠٠ من الأتراك.



الصورة ٢: يحيى بك الأطرش و يظهر حمد حامد

٣ أيار ١٩٠٠.

عدسة: غيرترود بل



الصورة ٣: قرب عرى .(من اليسار) حمد حامد ، محمود رضوان ، نصر الدين و أحد الفلاحين .

٣ آذار ١٩٠٠

عدسة : غيرترود بل

سرنا في البداية عبر حقول الذرة وعبر المروج ثم صعدنا أرضا صخرية نمت النباتات بين صخورها. كانت تلك المنطقة قليلة السكان، مررنا بقرية واحدة، هي العفينة، خلال سيرنا الذي استغرق ساعتين، ولكن كان هناك الكثير من البدو مبعثرين هنا وهناك وقد قدموا بقطعانهم للرعي وهم يدفعون أجرا على ذلك نقودا أو جمالا، وكان الدروز يستخدمونهم لخدمتهم. المواقع الأثرية هنا لا تحصى، ففي أقصى الجنوب من هذه السلسلة من التلال تقع قرية حبران التي أنا فيها الآن. نصبت مخيمي قرب بركة كبيرة وسط المرج تحفها أشجار السنديان الخضراء والقرية السوداء خلفها. كان القليب يشمخ الى الشمال " يا قلبي الصغير الغالي" لم أكن أجرؤ بالأمس على التفكيربأنني سأكون قريبة منه. وصلنا الى المخيم عند الثانية عشرة والنصف، فاغتسلت وتغديت و نمت. وعند الرابعة انطلقت بصحبة نصر الدين لاستكشاف القرية. عثرنا فوق أعلى قمة فيها على خرائب كانت يوما ما معبد ا (الصورة٤). وشاهدت كتابات يونانية على حجر طويل قد انشطرإلى نصفين. كان هناك برك ومغارات إلى الغرب، ومزار(٥) إلى الجنوب الشرقي بأبهى حلته وببابه الحجري الكبير (الحلس). أما القرية فكانت بيوتها مبنية بالأحجار القديمة. وقدأعيد بناؤها.

٥- يسمى هذا المزار (مولاي بهاء الدين) وهو من أكبر المزارات الموجودة في الجبل



الصورة ٤: دروز بينهم نصر الدين وخلفهم قرية حبران والقليب

٣ أيار ١٩٠٠ .

عدسة : غيرترود بل

وكان أجمل ما شاهدت بيتا يحوي قناطر في وسطه وبلاطات حجرية (الربد) تدعمها أطناف (ميازين) وهي تستخدم الآن من قبل الدروز كمعبد وتسمى " الخلوة " وليس فيها شيء ما عدا بعض البسط وشمعدان خشبي كبير وبعض الأشياء المصنوعة من القش ذات أشكال بديعة بارتفاع قدم واحد. شاهدت مثلها في البيوت أيضا، ولا ادري لأي شيء يستخدمونها. كانت القرية نظيفة للغاية، مليئة بالأشجار المثمرة وبالقش اليابس (الخصاب) فوق أسطح المنازل. كانت النسوة ينزلن إلى البرك المختلفة يحملن الجرارعلى رؤوسهن لملئها بالماء. دعاني شيخ القرية إلى منزله، وفرش لي السجاد والمساند في الخارج وصنع لي القهوة. تستغرق عملية تحضيرها زمناً طويلاً، تحميصها ثم طحنها ثم غليها. ومع ذلك لم أمانع، خاصة أنني كنت أجلس على مساندي أتحدث مع هؤلاء الناس الودودين الرائعين وأراقب غروب النهار فوق قمة القليب. عدت إلى خيمتي لأكتب، فقاطعني قدوم رجل عجوز طيب جاء لزيارتي في الخيمة. وبعد العشاء سبحت في البركة _ وبدت لي كبيرة كبحيرة وعميقة جدا. يتألق ضوء النجوم فوقها ويرسل القمر أشعته الى سطحها المتموج. لاحظت بأن النسوة هنا خجولات جدا، لا يرفعن اللثام عن وجوههن حتى أمامي، لكنهن سمحن لي أن أصورهن (الصورة٥). كن يقضين معظم وقتهن في إصلاح

أسقف منازلهن الطينية، لكن الرجال يعاملونهن بكل احترام – حتى عندما يكون الطين قد وصل إلى أكواعهن. أليس هذا غاية في الروعة!؟ كنت مبتهجة جدا. دعاني الشيخ الى العشاء ولكني اعتذرت بداعي التعب فقد بدأت يومي هذا منذ الثانية كما ذكرت. وفي هذا اليوم عندما كنت أتناول القهوة للمرة الأولى هذا اليوم في عرى طلب مني حامد أن أتلو عليه شيئا من الإنجيل فترجمت له هذه العبارة: " أحب لجارك ما تحبه لنفسك " وهي تبدو أفضل حكمة يمكن أن تقال في مثل هذا اليوم، وقد أعجبتهم كثيرا.

الجمعة ٤ أيار ١٩٠٠ حبران – عيون – صلخد – المنيذرة –القريا

بعد أن تناولت إفطاري في هذا اليوم وجدت الشيخ الجليل ينتظر قرب خيمتي منذ الفجر كي يصطحبني إلى منزله. ذهبت أولا إلى مزار قريب، ليس بعيدا عن خيمتي. والمزار هو قبر لأحد الأولياء أو الشيوخ، وهو نموذج معبد قديم يجري الحفاظ عليه بصورة جيدة بأبوابه الحجرية وسقائفه..الخ. قبّل نصر الدين عتبات الباب وأجزاؤه وكل القناطر وزوايا القبر. إنه تقديس غير عادي. بعد ذلك صعدنا إلى منزل الشيخ حيث قدم لنا فطورا شهيا تمنيت حينئذ لو لم افطر لما أحببت هذا الطعام. كان الفطور عشرة أرغفة أو اثني عشر من ذلك النوع الرقيق اللذيذ، وكأس من الحليب



الصورة٥: نسوة قرب حبران بجانب الينبوع يحملن جرار الماء .

٣ أيار ١٩٠٠ .

عدسة: غيرترود بل

والسكر فيها قليل من الجريش الأسمر وزبدية من اللبن الرائب. ثم بدؤوا بصناعة القهوة وكانت جاهزة قبيل انتهائنا من الطعام، وبها ختمنا افطارنا.

كانت الساعة الثامنة عندما غادرنا البلدة. أرسلت البغال مباشرة إلى مكان يدعى القريا، وركبت أنا ونصر الدين وحنا متجهين إلى صلخد، وهي الهدف الرئيسي الذي اعترض عليه المدير كما تعلمون. سرنا مدة ساعتين وسط حقول جميلة جدا: ذرة وخشخاش، وزهرة الربيع، ونباتات الحوذان، تحلق فوقها طيور التدرج وكان هناك بدو يرعون الغنم والجمال، بعضها ملك لهم والبعض الآخر للدروز والبدو رعاة لها. لاحظت بأن الأرض هنا أقل وعورة، إذ لم نصادف الكثير من الصخور. وصلنا الى القصير فوقع نظري على قلعة دائرية منتصبة فوق أعلى تلة وقد صورتها. ولمحت من بعيد تلالاً من الخرائب وصلناها عبر مرج أخضر بأعشابه الجميلة وشجيراته المزهرة، في وسطها برج مربع كبير وهذا المكان يسمى عيون (**الصورة ٦**). كان مرورنا بها مفيداً لسببين: أولهما أننا وجدنا في المكان الأول قرية رومانية يبدو أنها لم تسكن من جديد ويمكن للمرء من خلالها معرفة الشكل الحقيقي لطراز تلك البيوت، وثانيهما أن هناك مزاراً[٦] في المكان يزوره مجموعة

(٦) يسمى هذا المزار أبو الحر، و يتناقل الناس أسطورة حوله ما زال الكثير يعتقد بها حتى الآن.



الصورة ٦: دير قرب عيون (دير مكاريوس، الكارس) القرن الثالث الى الخامس الميلادي ؟ نصر الدين على صهوة جواده في مقدمة الصورة .

عدسة غيرترود بل

من النسوة والأطفال جاؤوا من إحدى القرى المجاورة، اسمها عرمان (الصورة ٧). كانوا جميعاً يلبسون أجمل الثياب وكان الأولاد يحملون أغصان الورد البري وسوق نباتات الشوكران. دخلت إليه بدوري، بعد أن لاحظت أن المزار أو الخلوة ينفردان بأنهما محافظ عليهما بصورة واضحة أكثر من أي أبنية أخرى، ووجدت أنها أماكن جميلة للغاية رغم شبابيكها الحجرية التي لا تسمح بدخول النور إليها إذا كانت مغلقة. وقد ضحوا بشاة من أجل المزار وطبعوا دمها على العتبة وساكف الباب. لم يكن هناك قبر في الداخل بل بئر كما يقول نصر الدين. وكان في المكان أشكال غريبة لحجارة سوداء وضعت عليها بعض الخرق الحمراء التي كان الناس يقبلونها ويأخذون شيئا منها. أعطوني أنا أيضا قطعة منها بعد أن تبرعت بقرشين للمزار، ولفوا الخرقة حول عنق حصاني. لاحظت بأن دين هؤلاء القوم غامض جدا، وبدا لي أنهم يعتقدون بأن كل القديسين يستحقون العبادة على السواء، ولهم صلاة كل يوم وخصوصا في ليلة الجمعة. وهم يقسمون إلى قسمين رئيسيين: العقّال والجهّال، ولكن يبدو أن الفارق الوحيد بينهما هو أن العقّال لا يدخنون، والجهّال يدخنون(٧).

٧- هذا ليس الفارق الوحيد بينهما بالطبع، وليس بالضرورة أن الجاهل يدخن، كما أن كلمة جاهل هنا تعني الجهل بأمور الدين و حسب.

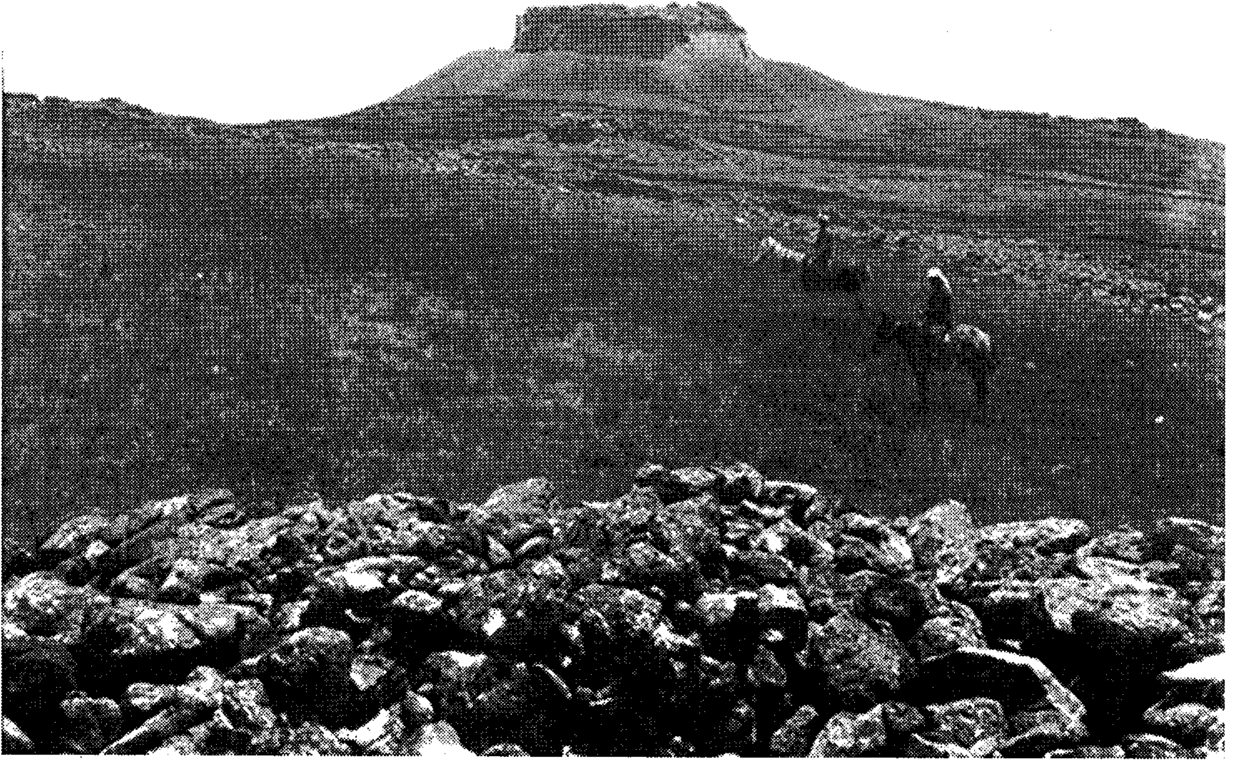


الصورة ٧: نسوة درزيات و أطفال في عيون (مزار أبو الحر)

٤ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

وقد استغربت من أن يحيى بك الذي يجب أن يكون من العقّال هو من الجهّال وهو يدخن أيضا. (يا له من حبر سيىء هذا الذي أكتب به، إنه أسوأ حبر رأيته في حياتي، يبدو انه حبر محلي الصنع). ولديهم كتب مقدسة تقرأ فقط من قبل كبارهم. سرنا من عيون داخل شعب وحين صرنا في نهايته كنا وجها لوجه مع صلخد. مكان رائع انتصبت فوق أرضه قلعة ضخمة بنيت فوق مخروط بركاني مرتفع. وبدت من الخارج بكامل حلتها (الصورة٨). يعود إنشاؤها إلى عصور قديمة (قيل إنها كانت تابعة لمملكة عوج، ملك باشان) ثم وقعت في أيدي الرومان، وأعاد المسلمون بناءها من جديد. وعلى عكس مظهرها الخارجي، كان داخلها عبارة عن خرائب وكتابات يونانية مبعثرة هنا وهناك وبعض تيجان الأعمدة المكسرة. شاهدنا في الداخل ممرات متعددة وغرفاً كثيرة وبركتي ماء. كان هناك برج سداسي تهدمت قمته وفوقه كتابات عربية. كان المنظر من أعلى القلعة جميلاً جداً. تعتبر قلعة صلخد آخر الأماكن المرتفعة في المنطقة وهي محاطة بتلال بركانية صغيرة تتدرج شيئا فشيئا نحو صحراء شاسعة تصل حتى الفرات. وهناك قرية أو قريتان مسكونتان فوق سفوح تلك التلال وبعض الخرائب على التلال الأخرى وبعد ذلك لا أحد يعلم ماذا تحوي تلك الأرض، وهي بيضاء على الخريطة. ومن تحت قدمي في هذا المكان يبدأ مسار



الصورة ٨: صلخد. حنا و نصر الدين و في الخلف القلعة . ق الثاني عـــشر – الثالث عشر الميلادي

٤ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

طريق روماني يمتد على مد النظر بخط مستقيم نحو الجنوب الشرقي وينتهي في بغداد. أما إلى الغرب فالطريق يقود مباشرة الى بصرى الشام. وصلخد قرية كبيرة، ولكن لا شيء لافتا للنظر فيها. غادرنا صلخد في الساعة الثانية ووصلنا القريّا في الرابعة النصف. مرورا بالمنيذرة، وهي قرية خالية من الأبراج، سلكنا الطريق باتجاه الشمال الغربي. كنت منشرحة برؤية بصرى أمامي وسط السهل الغربي وتمنيت لو يتمكن المدير من رؤيتي. مررنا عبر منطقة صخرية وعرة، كانت في يوم من الأيام حقول كرمة على ما يبدو. كانت الأعشاب نامية بين الصخور والبدو يرعون فيها قطعانا كبيرة من الإبل. في القريا وجدت مخيمي جاهزا ومحاطا بمئات من الناس بينهم اثنان من أبناء الشيخ (ابن أخي يحيى بك) وقد استقبلاني بحفاوة بالغة.بعد أن تناولت الشاي سمعت طرقات قوية على باب خيمتي، فخرجت في أثرها لأجد اثنتين من بنات الشيخ تنتظراني، ذهبنا يدا بيد إلى منزلهما وخلفنا كل سكان القرية. لم يكن الشيخ [٨] موجودا، لكن نسوة وأطفالا عديدين

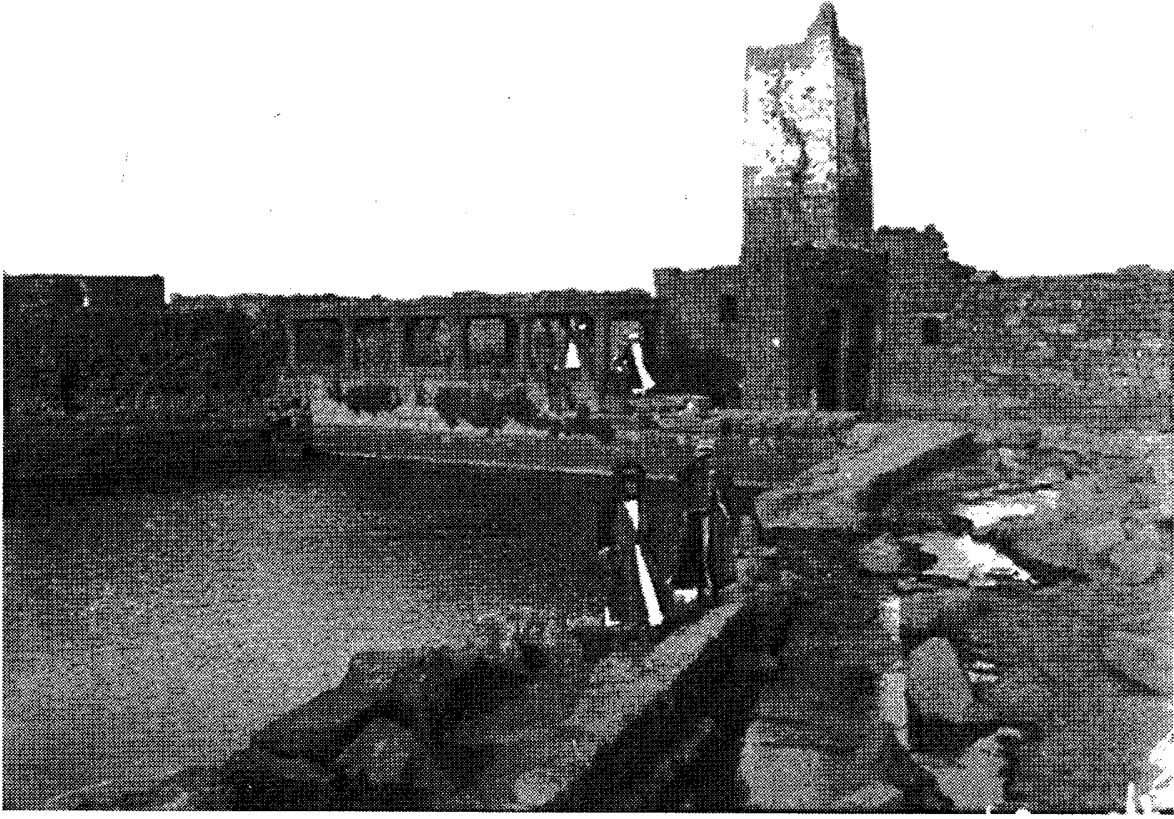
٨- **الشيخ فايز مصطفى الأطرش،شيخ القريا وعم القائد العام سلطان باشا الأطرش.نفي مع شقيقه ذوقان،والد سلطان باشا،الى خارج بلاد الشام عام ١٨٩٦.كان شبلي الأطرش يتوسم فيه جميع الصفات والمزايا الطيبة التي تؤهله لمنصب القيادة، لكنه توفي شابا عام ١٩٠٤.**

المراجع : مذكرات سلطان باشا الأطرش ، مرجع سابق العدد٩٧ الحلقة الأولى . مقابلة شخصية مع السيد فندي الأطرش – السويداء ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٧

استقبلوني. جلسنا في شرفة مفتوحة إذ لم استطع تحمل حضور هذا الحشد الكبير من الناس فأدخلنا أحد أبناء الشيخ إلى غرفة في الداخل وشربنا القهوة براحة وهدوء. كان أبناء الشيخ الخمسة بناتٍ وصبيانا في غاية الروعة والجمال. سألت البنات عما إن كن يرفعن اللثام عن وجوههن، فقلن: " لا، حتى لو كنا بمفردنا أو عندما نذهب للنوم". جاء العديد من المسيحيين لرؤيتي، إذ يقيم العديد منهم في هذه البلدة، لجؤوا إليها هربا من سطوة الأتراك. وكان من بينهم مدرس من بيروت، يعرف القليل من الفرنسية وكم كان فخورا بذلك. وقد أعطاني هذا الحبر – وكانت فرنسيته من نفس نوعية الحبرهذا. لم أحب هذه القرية كثيرا. فهي تقع بأرض منبسطة وعرة كئيبة، والناس هنا ليسوا بلطف ورقة أولئك الذين في الجبال، كذلك فإن الماء كان عكراً وطعمه سيىء جدا.

<u>السبت ٥ أيار ١٩٠٠ القريا – السهوة – الكفر</u>

أرسلت لي سيدة مسيحية طبقا من الطعام للفطور– بعض الخبز الرقيق الملفوف وبداخله لبن (لبنة)، مالح الطعم قليلا. تجولت في أرجاء القرية. شاهدت بركة مكشوفة جميلة في وسطها، وقد شيدت جوانبها من حجارة قديمة رائعة الأشكال وفي إحدى أطرافها مكان مرتفع للجلوس يصعد اليه بدرج وثلاثة صفوف من الأعمدة القصيرة تدعم سقفا مائلا(الصورة٩). أعتقد أنه عمل حديث



الصورة ٩: القريا . برج كنيسة قرب بركة ماء . القرن الثالث – الخامس الميلادي

٥ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

العهد بمواد قديمة، ولكنه عمل باهر للغاية. وخلف هذا المكان كنيسة مهدمة لها برج مربع الشكل. يقول العارفون إن هذه الحجارة الكبيرة هي من عهد ملك باشان وليس من زمن الرومان. وفوق الجدران الكثير من النقوش اليونانية. كان هناك مزار خارج البلدة دخلت إليه فوجدت غرفة مريحة بصف من الأعمدة يسند سقفها الحجري، وعدداً من الأطفال يجلسون على الأرض يعلمهم صديقي المدرس القراءة. وهذا المزار كان غرفة تعلوها قبة وبداخلها قبر.غادرت في السابعة والنصف أنا ونصر الدين وأرسلت الآخرين مباشرة إلى الكفر، حيث سيقام مخيمنا التالي. توجهنا غربا ودرنا حول تلة صغيرة تغطيها الخرائب. إنها قرية حزحز. يقول نصر الدين إن البدو هدموا هذه القرية وأعتقد أنها بحاجة لأيادٍ قوية لإزالة أحجارها وإعادة بنائها. لفت نظري مجموعة من الأزهارالبرية تنمو بين الأحجار- رغم أن وقت الإزهار قد ولى، ولكن ما زال هناك زهرالخشخاش القرمزي والبرتقالي، وأزهار الربيع. نحن نسير الآن نحو القليب، الأماكن أصبحت أجمل وأبهى (لا استطيع تحمل هذا الحبر أكثر، ليتني أعثر على قلم رصاص!) وحقول الشعير كانت غاية في الروعة، لكن الجراد للأسف أكل أكثره؛ قالوا لي إنه غزاهم في السنوات الثلاث الماضية، لكني عرفت من كتب الرحلات أنه موجود في كل مكان، ويمكن أن يأتي

بين حين وآخروفي أي وقت. وصلنا إلى ينبوع ماء عذب؛ كان الماء يجري متدفقاً وصافيا من تحت صخرة كبيرة، فشربت منه بكل استمتاع. الماء الذي شربته بالأمس كان سيئا للغاية، وعكراً، وكان لون الشاي المصنوع منه كلون القهوة. رجاني نصر الدين(٩) أن أنحرف عن الطريق الذي نسلكه قليلا لنعرج على قرية السهوة لأشرّف والدته بشرب القهوة معها. لم تكن هذه القرية مذكورة على الخريطة.

كانت قرية جميلة، جديدة، ومبنية بحجارة قديمة استحضرت من الكفر وبنيت فوق تل بركاني تقليدي. في كل مكان انتشرت حقول الذرة وأشجار التين والعنب تشهد على ازدهار هذه القرية. هنا يسكن صالح، والد نصر الدين. جلست تحت شجرة توت مع أفراد العائلة. كانوا بغاية الأناقة واللطف. قدموا لي البيض المقلي والخبز وشربت القهوة والحليب. تجمع جميع أهل القرية حولنا. وكان هذا

---

(٩) الشيخ نصر الدين صلاح الحناوي (١٨٧٠ – ١٩٦١). من ثوار الجبل في العهدين التركي والفرنسي. كان حامل بيرق (راية) قريته سهوة بلاطة منذ كان في السادسة عشرة من عمره، وقد استلم الراية من المرحوم الشيخ أبي علي قسام الحناوي. حارب العثمانيين في حملاتهم المتعددة على الجبل منذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر . شارك في الثورة السورية الكبرى وقاد أبناء بلدته في أشهر معاركها. عين ضابطا لناحية عرى في حكومة جبل الدروز عام ١٩٢١.

المراجع : حديث مع السيد مرسل الحناوي – سهوة بلاطة – أيلول ٢٠٠٧. جبل الدروز. مرجع سابق ص ١٧٤.

يشعرني بالضيق، ولكن ما بوسع المرء فعله؟ فعندما يحاول المرء الاعتراض يقولون: نحن نتمنى رؤيتك والنظر إليك لأنك شرفتنا. وشيخ القرية هو عم نصر الدين. زرته وتعرفت إلى زوجته، كان منزلهم جميلاً ونظيفاً. اشتريت ثوبا نسائيا درزيا من زوجة ابن عم نصر الدين لأهديه لشقيقتي إلسا. إنه جميل جدا وزاهي الألوان للغاية، كانت الملابس التقليدية قد اختفت في كل الأماكن باستثناء هذه التلال. بعد ساعة من السير صعوداً عبر غابة من البلوط والزعرور البري المزدان بالأزهار الجميلة، وصلنا إلى الكفر حيث كانت خيمتي قد نصبت وأصبحت جاهزة. وصلنا إلى القرية في الواحدة والنصف.

كان يوما قصيرا في الحقيقة، ولكني أحتاج إلى بعض الوقت كي أكتب مذكراتي المتأخرة. أنا أقف الآن على سفح القليب تماما، وعلى غير عادتي، لم أصعد إلى قمته بسبب ارتفاعه الشاهق. حالما وصلت القرية جاء ابن الشيخ وعدد من الوجهاء لرؤيتي. كانوا ألطف ما يتمنى المرء أن يلتقي بهم في حياته، كانوا رجالا ذوي بنية قوية؛ متوسط قاماتهم يعادل ستة أقدام. غادروا سريعا وتركوني أكتب. في الرابعة خرجت أنا وعلي، ابن القرية، والحقيقة أنني لم أكن أريده، فسيكون ترفاً مفرطاً أن يكون معي

دليلان. ولكني كلما طلبت منه أن يذهب قال إنه أخي ويجب أن يرافقني أنى حللت – ليس من دون مكافأة بالطبع!

في القرية ما يزال هناك أبنية قديمة صامدة أمام الزمن جميلة للغاية. وثمة بوابة حجرية ضخمة(حلس)(الصورة١٠)[١٠] تدخل منها إلى البلدة وكان هناك الكثير من بقايا منحوتات للكرمة واللبلاب أفضل مما رأيته سابقا. قمت بزيارة لابن الشيخ، وبينما كنت أشرب القهوة وصل الشيخ العجوز[١١]. كان بزيارة ليحيى بك، وقد توقع وجودي لأن البيك سأله إن كان قد رأى ملكة مرتحلة في هذه البلاد. قدموا لي خروفا لكني رفضت. أتمنى أن أكون على صواب بذلك، فالمرء لا يعلم ماذا يفعل في مناسبة كهذه وأخشى أنني قد ارتكبت هفوة. وبدا لي أن البيك سيعقد اجتماعا خلال يومين بالشيوخ في مكان ما في أحد التلال. وخطر لي أن أحاول حضوره. أنا ذاهبة باتجاه الشمال الشرقي إلى قرية تدعى المشنف

١٠- كان يحيط بالقرية القديمة في الكفر أربعة أبواب هم: ١- باب الحلس: من جهة الغرب لأنه كان بابا حجريا كبيرا (حلس) ٢- باب الغنم: من جهة الجنوب، لخروج الغنم الى الرعي منه. ٣- باب الماء : من جهة الشرق لوجود ينابيع الماء قربه ٤- باب الموت : من الشمال لوجود المقبرة في جهته

المرجع : مقابلة شخصية مع الشيخ أسعد حديفة – الكفر في ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٧ .

١١- الشيخ محمد مرشد : شيخ قرية الكفر . توفي عام ١٩١٧ .

المرجع : مقابلة شخصية مع الشيخ فوزي مرشد– الكفر في ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٧



الصورة ١٠ : باب حلس روماني في السور الغربي للكفـــر . الشيخ محمد و بعض الدروز

٥ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

فقد قال موريي إن هناك معبداً هو غاية في الروعة. وهذا يعني زيادة يوم على مخطط رحلتي ولكني أرى أن من الحماقة في هذه الظروف الاستثنائية أن لا أرى كل ما يمكن رؤيته من أماكن جميلة قلما رآها أناس من قبل. قادوني إلى الخلوة التي هي أكبر من كل الخلوات التي شاهدتها من قبل. كانت مقسومة إلى قسمين فصل أحدهما عن الآخر بستارة سميكة سوداء تفصل الرجال عن الحريم، وقد وضعت الكتب المقدسة على رفوف صنعت من القش. واتجهت من هناك إلى أعلى تلة صغيرة تسمى الحصن(١٢) كان هناك خرائب يبدو أنها بقايا قلعة قديمة. وفوق صخرات عالية كان هناك خلوة (١٣) بنيت من أحجار قديمة، وفي أسفلها ينبثق من تحت صخرة ينبوع ماء عذب وعذب للغاية. لاحظت أن أحوال الماء عجيبة في هذه البلاد، فلا يمكن أن تتخيل وجوده في أعلى قمة صخرية، عذباً شهياً، بينما لا تعثر عليه في السهل، مثلما هي الحال في القريا، فتضطر إلى شرب ماء رديء الطعم واللون والرائحة. وإلى جنوب المكان وليس أبعد من ميل واحد تواجهك التلة التي

١٢- تلة تقع الى الجنوب من البلدة على يسار الطريق الحالي المتجه الى صلخد ، و لا زالت المياه موجودة و مستثمرة فيه حتى الآن.

المرجع: مقابلة شخصية مع الشيخ أسعد حديفة – الكفر في ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٧

١٣- هي خلوة الشيخ أبو يوسف حمد النمط من العفينة ، و قد توفي الشيخ عام ١٩٢٤ ، و أهملت الخلوة بعد ذلك و أصبحت خرابا .

المرجع: مقابلة شخصية مع الشيخ فوزي مرشد– الكفر في ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٧ .

تجثم فوقها حبران، مكان مخيمي السابق. درت دورة كاملة وشاهدت كل المواقع المهمة إلى الجنوب. كانت الخرائب تمتد إلى مكان أبعد بكثير من حدود البلدة هناك طريق روماني يأتي مباشرة من بصرى. وآخر يخرج من البلدة باتجاه الشمال الشرقي. جاء رجل بقصيدة كتبت بالعربية، كتبها بمناسبة زيارتي، فقلت إني لا أعرف العادة في هذه البلاد، ففي بلادنا إن كتب شخص قصيدة عني فاني أكافئه بشلن. قال: نعم هذا ممكن. فأعطيته ربع مجيدية، وأعطاني نسخة من القصيدة. وكان كلانا مسرورين بذلك. بعد الغداء جاء ابن الشيخ برفقة رجلين آخرين لشرب القهوة معي. وعلمت أنه في يوم الثلاثاء سيجتمع كل الدروز للقاء يحيى بك و الترحيب به عند تل القليب. فسألت إن كان بإمكاني الحضور فأجابوا " سيكون هذا من دواعي سرورنا يا صاحبة السعادة ". وهكذا سأحضرالاجتماع. وشعرت بأن هذا متعة ما بعدها متعة. وحين أخبرتهم أن أخي موريس كان جنديا و أنه ذهب للحرب، نظروا إلي بريبة عندما سمعوا ذلك، فكلمة " العسكر" لا تسرهم كثيرا لأنها تذكرهم بالعساكر الأتراك. لذلك سارعت إلى القول بأنه لم يكن جنديا بمعنى الكلمة، لكنه ذهب للحرب لأن الملكة أرادته أن يذهب. عندها قالوا " فهمنا، أنه يحمل سيفا حرا كسيوفنا".

الأحد ٦ أيار ١٩٠٠ الكفر – سالي – المشنف – بوسان

أرسلت البغال مباشرة إلى بوسان هذا الصباح مع (أخي) علي وركبنا أنا وحنا ونصر الدين إلى مكان يسمى سالي. مررنا بالقرب من القليب حيث المراعي الوافرة والممتدة، على عكس الأرض التي وصلناها بعد حين والتي كانت مهجورة مغطاة بالحجارة وغير صالحة للزراعة. ومع ذلك فقد نبتت فيها أعشاب كافية لرعي إبل البدو فيها. كانت الليلة الماضية دافئة بعد هبوب الرياح الشرقية مما جعلني أنام دون غطاء، أما اليوم فقد تحولت الرياح غربية باردة وعاصفة، حاملة معها الغيوم الداكنة. وكان القليب مغطى بالضباب عندما صحوت صباح هذا اليوم، والسماء مغطاة بغيوم خفيفة طيلة اليوم. أنا ألفّ نفسي الآن بكل ما أملكه من عباءات. من الغريب أن يعود البرد ثانية بهذه السرعة .وصلنا تل الجينة[١٤] حيث يحفرالأتراك قناة لجر مياه النبع إلى السويداء. استغرق الوقت منا ساعات أربع حتى وصلنا إلى سالي، وكان الطريق وعرا جدا. وصلنا حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف. وقرية سالي قرية واسعة فيها العديد من بقايا كنائس وبيوت مهدمة ذات جدران متينة مبنية بحجارة متداخلةٍ أحـــدها بالآخـــر ليزيدها

١٤– تل الجينة أو القينة .نحو ١٨٠٠ متر عن سطح البحر، و في الحقيقة إن قمته هي الأعلى في الجبل لا قمة القليب.

ثباتا. مررنا على ينبوع عذب حوله عدة مروج حيث تغدينا تحت إحدى أشجار الصفصاف. من هنا غادر حنا مباشرة إلى بوسان، أما أنا ونصر الدين فقد انطلقنا باتجاه مكان يسمى المشنف يقع على مسافة ساعة إلى الشمال من بوسان. أمضينا ساعتين من المشي المرهق بين الصخور والأعشاب. لمحنا من بعد أطراف الصحراء الممتدة من أسفل التلة التي كنا فوقها، لكن الجو كان غائما وهو ما منعنا من رؤية المزيد. كانت المشنف ذات يوم بلدة واسعة، تشهد بذلك الخرائب الممتدة إلى أسفل المنحدر المهجور. لا شك أنها كانت بقعة مسكونة منذ القدم فقد مررت على كهف سكنه الإنسان القديم، فاستكشفته وشاهدت غرفا منحوتة داخله. أما أطلال البيوت فكانت عظيمة جدا وبدا لي أن كل بيت تحته طابق أرضي. وقد أخبرني الشيخ بأنه كان هناك بلدة كاملة تحت الأرض. كان الشيخ أحمد(١٥) شخصا لطيفا، دعاني إلى بيته وقدم لي وجبة ممتازة من الخبز والزبدة واللبن والبيض المقلي. وضع الطعام على طبق واسع من القش صنعه أهل البيت. كان متحمسا جدا لبقائي عندهم هذه

١٥- الشيخ أحمد صالح حمد غانم . اشتهر بالكرم و حسن الضيافة .كان عضوا في مجلس ناحية بوسان عام ١٨٩٧. توفي عام ١٩٢٠ .

المرجع : تاريخ لواء حوران الاجتماعي ، مرجع سابق ص ٤٧ و ٧٤ . حديث مع السيد عاهد غانم – المشنف ٣١ /١/٢٠٠٨

الليلة (ليس للمنزل نوافذ على الإطلاق) من المؤكد أنهم سيقدمون لي أفضل ما عندهم من الفرش. إنهم أناس طيبون للغاية . في هذا المكان القفر الصخري على حافة الصحراء كان هناك معبد صغير في غاية الروعة (الصورة ١١). مبني فوق أرض مرتفعة قليلا، ويمكن الوصول إليه عبر عدة أدراج بمحاذاة حافة بركة ماء نحتت في الصخر . وما زال جدار المعبد الشمالي[١٦] بحالة جيدة أما الجدار الغربي فنصف مهدم، والشرقي آيل إلى السقوط، أما الجنوبي فمهدم منذ القدم، لكن بناؤه قد جدد كيفما اتفق، وقد بني بعض بقايا الإفريز رأسا على عقب في منتصفه. كان للمعبد مدخلان، أحدهما صغير بأبواب حجرية،ويبدو أنه ما زال في مكانه الأصلي، أما الآخر وهو الباب الرئيسي للمعبد فهو متهدم الآن ولم يبق منه إلا الساكف (الحنت) المنحوت المغطى بالزخارف الجميلة، وفي ناحيته العليا من الخارج نحت إفريز مزدوج وعلى زواياه تيجان على شكل أوراق نبات الأكانثوس. ليس هناك أعمدة أمام المعبد، ولكني أعتقد بأن صفاً من الأعمدة كان يصل إلى الباب الخارجي، لأنني لاحظت ما يشبه صفا من قواعد الأعمدة على الرصيف. إنه معبد بسيط وجميل، وخاصة أنه يقع

١٦- في الحقيقة هو الجدار الغربي، و قد أخطأت بل في تحديد الجهات على ما يبدو، وهذا يعني أن تحديدها لجهات جدران المعبد الأخرى غير صحيح أيضا.



الصورة ١١: معبد في المشنف ، روماني ، القرن الثاني الميلادي . الجدار الشمالي للمعبد (الصحيح الغربي) قرب بركة منحوتة في الصخر . دروز ونصر الدين في المقدمة .

٦ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

قرب بركة منحوتة في الصخر. وقد دلني الشيخ على تمثال يدعونه الصنم (الوثن)، وهو تمثال بلا رأس موضوع على جنبه ومسند إلى الجدار، وبدا خشناً غير متقن، فقد كانت أطرافه غير متناسبة.

استغرق منا الوقت حوالي الساعة للوصول إلى بوسان؛ وهي بلدة قليلة السكان ، كثيرة الخرائب تبعد حوالي ميل عن حافة الهضبة المطلة على الصحراء. وصلت هناك الساعة الخامسة، متعبة، أرتجف من البرد، فتوقفت عن الطواف حتى صباح اليوم التالي.

الاثنين ٧ أيار ١٩٠٠ بوسان - قنوات

عندما يسافر المرء إلى بلاد حارة، فإن القاعدة الرئيسة هي أن يحضر معه ملابس شتوية. وشعرت بأن لدي سببا وجيها اليوم لكي أكون مسرورة لأني أدركت مغزى ذلك. كنت أنوي أن أخيم ليلة أخرى على التلال كي أذهب إلى القليب وأكون في قلب الحدث عندما أشهد اجتماع الدروز يوم غد، غير أنني عندما استيقظت وجدت الرياح الغربية أبرد من أي وقت مضى والهضاب مغطاة بالغيوم. ولذلك قررت أن أذهب مباشرة إلى قنوات و أنام هناك. وهذا ما سر مرافقي لأنهم يعلمون بأنه مكان أنسب من الجبال للتخييم في يوم ماطر. قبل أن أغادر استكشفت بوسان، وهي قرية جميلة ما تزال بيوتها القديمة صامدة ومحافظاً عليها أكثر مما في

البلدات الأخرى. غير أن معظمها غير مسكونة. وهناك إسطبلات كبيرة مظلمة تحتها والغرف بدون سقوف ولها نوافذ عديدة في الأعلى، كما أن بعض الأدراج ما زالت قائمة، وشاهدت في داخل أحد البيوت حماما صغيراً ما زالت قناة الماء الواصلة إليه ظاهرة. التقطت صورة للمكان وسط السحب المحيطة بنا (**الصورة ١٢**)، ثم غادرنا في الساعة الثامنة و النصف عبر التلال . يا إلهي كم كان الجو باردا ! تخيلت أن الهضاب المقفرة أمامنا لا نهاية لها ، والسماء لم تمطر قطرة واحدة، ولكننا كنا نسير بين الحين والآخر وسط الغيوم المشبعة بالرطوبة. كان البرد قارسا جداً، أما الطريق النازل من الأعلى نحو الوادي فكان جميلا. وبدا الوادي معشوشباً أخضر، لكن ليس بمقدور المرء أن يستمتع بجمال الطبيعة وأسنانه تصطك بعضها ببعض من شدة البرد. كنت في غاية السرور وأنا أسمع نصر الدين يردد " ما شا الله قنوات ". رأيت المعابد المهدمة منتصبه فوق أعلى الهضبة، مبنية في مكان رائع يمكنك أن تشاهد منه السهل الحوراني، و ترى جبل حرمون بالتأكيد. وصلت إلى البلدة في الساعة الثانية عشرة وكانت السماء تمطر بغزارة .

صعدنا نحو المعابد في أعلى البلدة، وتغديت في المزار، وهو غرفة صغيرة خارج المعبد. كنت شاكرة لذلك الولي، أيا كان اسمه، لإيوائنا تحت سقفه. نصبت خيمتي بصعوبة في مكان يتوسط



الصورة ١٢: أطلال منازل في بوسان ، العصر الروماني

٧ أيار ١٩٠٠ .

عدسة : غيرترود بل

بين معبدين إلى اليمين وإلى اليسار، كما كان هناك معبد آخر بعيد قليلا إلى الغرب. كنت أتأمل من باب خيمتي تلك الأعمدة الكورنثية العظيمة وبوابة منحوتة بإتقان مدهش (الصورة ١٣). العمل المعماري هنا متقن أكثر من أي مكان رأيته في الجنوب أو الشرق. استمر المطر حتى حوالي الثالثة ولكني وجدت وقتاً لاستكشاف البلدة. كانت الطرق مبلطة ببلاطات قديمة، ومررت ببيت رائع في المنتصف يمكن الوصول إليه بعدة درجات. في داخله فناء كبير ودرج ثبتت كل درجة فيه في الجدار من جانب وتركت حرة من الجانب المقابل. كانت ضخمة جدا وقد تكسرت عدة درجات منها وهوت إلى الأرض. ويصل الدرج إلى شرفة مبنية بالطريقة ذاتها فقد خرجت الأحجار الطويلة من الجدار لكن معظمها تكسر، وكان الدرج يحيط بجانبين من الفناء أما أبواب الغرف وشبابيكها فتطل عليه. ويمتد في الجانب الشمالي من البلدة وادٍ صخري يجري في أسفله جدول ماء تحف به أشجار الصفصاف وهناك مسرح صغير (الصورة ١٤) بين أشجار الصفصاف و بناء صغير مدهش يروى أنه كان حماما . وفي الأعلى قلعة مهدمة وبرج دائري.

راودتني فكرة الزيارة السريعة إلى السويداء، لكني أعتقد بأن من السذاجة أن أفعل ذلك. لا ريب في أنني سأكون غبية إذا ما ألقي علي القبض من قبل الأتراك و منعوني من إكمال مشروعي.



الصورة ١٣: دير أيوب – قنوات . باب كنيسة .القرن الرابع – الخامس الميلادي . نصر الدين و سليمان في الباب

٧ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل



الصورة ١٤: مسرح في قنوات . العصر الروماني . نـصر الـدين يجلـس فـي المنتصف.

٨ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

وشعرت بالدهشة حين علمت أن النبي أيوب مدفون في بوسان. وقد زرت مزاره، ولاحظت أن اللون الأحمر التي اصطبغت به بوابته وبعض الأعمدة المكسرة هو تقديس له بعد ذبح القرابين على شرفه و طبع دمائها فوق تلك الأحجار. (ملاحظة: ليس هذا صحيحا لأن النبي أيوب مدفون هنا ولا أدري أي ولي مدفون في بوسان)[١٧]

<u>الثلاثاء ٨ أيار ١٩٠٠ قنوات – سيع – عتيل – قنوات</u>

بزغ الفجر بهياً هذا اليوم وكنت أشعر بكامل نشاطي، ولكن الغيوم تجمعت بعد ساعة وجميع كل التلال المحيطة. اعتقدت أن الدروز لن يعقدوا اجتماعهم في مثل هذا الجو الغائم الماطر، وأمضيت بعض الوقت أزور كاناثا، (و هو اسم قنوات القديم). ركبنا دوابنا أنا ونصر الدين وصعدنا تلة قادتنا إلى مكان يسمى سيع، كان ذات

١٧- بل اسمه النبي أيوب أيضا ، كما يوجد الكثير من المزارات المقامة للنبي أيوب في الجبل : في قنوات و عوس و رساس و غيرها..

يوم ضاحية كبرى من ضواحي قنوات، أما الآن فهي كومة من الحجارة. ولكنه مكان رائع يطل على السهول من الغرب والشمال. من المرجح وجود العديد من المعابد على قمة التلة. سلكت الشارع المبلط فوصلت إلى بوابه مهدمة ثم إلى ساحة مبلطة تغطيها كسر التيجان والأفاريز والزخارف و الحجارة المنحوتة. من هناك ركبنا الى عنز[١٨]، وهي خربة مهدمة تماما. ثم صعدنا تلة جميلة أخرى عبر أيكة بلوط مزروعة بالبيقية تتألق بأزهارها الوردية الجميلة، ومن حافة التلة شاهدنا السويداء، وهي ليست أبعد من ميلين عنا. كنت متحمسة جدا للذهاب إليها لكن نصر الدين ارتعد وقال إن العصملي (الأتراك) الملاعين يسكنون فيها، وسألني لماذا أريد الذهاب إليها. وهكذا عدت على مضض الى الخلف. لا أدري ماذا يمكن أن يفعلوا بي، لكني ربما قد أتسبب بأي مكروه لمضيفي الأعزاء، لذا فقد عدلت عن قراري. نزلنا من التلة إلى السهل مارين بالكثير من القبور البرجية المربعة – وهي المنتشرة في كل مكان في هذه البقاع.

١٨- خربة العنز خرائب قرية صغيرة، تقع الى الجنوب من سيع. كانت متصلة بطريق قديم يصل موقع سيع بالسويداء.

المرجع : سوريا الجنوبية ، حوران ١. اشراف ج . م . دانتزر – ص ٩٢

ثم مررنا بمساكب[١٩]؛ قرية قديمة مهدمة تماما وفيها برك كبيرة شيدت جدرانها من الحجارة المقطوعة من موقعها نفسه، وهي غير مستخدمة الآن حيث تغطيها الأعشاب التي توشيها الزهور البيضاء. لا شك في أن الدروز سينتشرون في كل هذه المناطق خلال سنوات قليلة إن لم يهاجمهم الأتراك الذين كانوا يهاجمونهم بشكل دوري، فينهبوا حقولهم وكرومهم و يأخذوا رجالهم و نساءهم و أطفالهم و يزجون بهم في السجون. سرنا في الحقل الذي كان ساحة المعركة قبل ٤ سنوات خلت[٢٠] وقد اشترك نصر الدين في

١٩- خربة مساكب: موقع أثري قرب سيع، تبقى من أطلاله أبنية متنوعة وبركتان للماء وعض الآبار وكسر فخار وقطع صوانية وبقايا قبر مستدير ترقى جميعها إلى العصور النبطية والرومانية والغسانية والبيزنطية والعربية.. نقبت في الموقع البعثة الفرنسية ١٩٩٨-١٩٩٩. في أيار ٢٠٠٧ وجد أحد المواطنين قطعة فنية رجح من خلال طريقة نحتها أنها تعود إلى الفترة الهلنستية، وهي بارتفاع ٨٠ سم و عرض ١١٨ سم وسماكة ٣٦ سم، تمثل نحتا نافرا لثور ، موجودة على مدخل المتحف الوطني بالسويداء.

المراجع: معجم المواقع الأثرية في سوريا ، قتيبة الشهابي ،وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠٠٦ ص ٢٣٦ . حريدة. الثورة العدد ١٣٢٦٠ ١٥ / ٣ / ٢٠٠٧

٢٠- عرفت هذه المعركة بكبسة قنوات و قد جرت في تموز ١٨٩٧ ، بعد أن أرسلت الدولة العثمانية حملة بقيادة طاهر باشا قوامها ٣٠٠٠٠ جندي لمساعدة ممدوح باشا المنكسر في السنة الماضية في خراب عرمان و معارك أخرى . وقد فاجأ ثوار الجبل، بقيادة خليل عامر، الجيش العثماني في أحراج قنوات و أبادوا معظم أفراده و قواده وغنموا ٥٠٠ حصان قبل انسحابهم الى معاقل اللجاة الآمنة. وقد وصف المعركة الشاعر عبد الله كمال من سالة حيث يقول: تالي سعدنا يوم كبســـــــــة قنوات ياما ذبحنا من العساكر باشاوات

وياما خذينا من السلاسل نجيبات بحساب كامل خمس ماية لجامي

هذه المعركة وأراني أين خيم الدروز وأين دارت رحى القتال. وقد استمرت المناوشات نحو أسبوعين قبل أن يتراجع الدروز غير مهزومين إلى معاقلهم الصخرية في اللجاة، إلى الشمال. وقد وعدهم الأتراك بالعفو إن عادوا، ففعلوا هذا، ولكن ما إن استقروا بقراهم حتى هاجمهم الترك و قادوا المئات منهم أسرى الى جزيرة رودس. نزلنا نحو السهل إلى مكان يسمى عتيل حيث لم يكن هناك سوى معبدين، صورتهما كلاهما (الصورة ١٥). انقشعت الغيوم قليلا ومال الجو إلى الدفء ،كما أصبح الضوء أفضل من أجل التصوير. وبعدئذ زرت الشيخ الذي أصرعلى أن أبقى لتناول الغداء – كان الوقت قد جاوز الثانية عشرة ظهرا. جلست على الأرض في منزل الشيخ و أحضر لي على صينية كبيرة من القش (يسمونها الطبق) بيضا مقليا وخبزا و زبدة ، ولبنا، ونوعين من الحلويات. أحدهما شيء كالسكر الأسمر والآخر بديع جدا مصنوع من العنب المغلي، يسمونه الدبس. لقد أصبحت خبيرة بالأكل بملعقة مصنوعة من الخبز. زرت أخيراً زوجة الشيخ، ثم ركبنا عائدين عبر التلال الجميلة إلى قنوات. كانت الشمس ساطعة فالتقطت صورا للمكان، ثم استقبلت الشيخ يوسف بن حسن الهجري

المراجع: جبل العرب، مرجع سابق ص ٢٢٢-٢٢٣. العامية والانتفاضات الفلاحية في جبل حوران، مرجع سابق ص ٢٣٩.



الصورة ١٥: معبد في عتيل . نصر الدين و قرويون في المقدمة .

٨ أيار ١٩٠٠ .

عدسة: غيرترود بل

إبراهيم[٢١] الذي جاء لزيارتي في المعبد. جلسنا جميعا فوق تيجان مكسرة و ناقشنا الأوضاع السياسية. كان الشيخ رجلا حاذقا، لكني كنت أتمنى لو أن المواضيع كانت مبهجة أكثر. فالحكايات التي رويت كانت حزينة للغاية. اغتنمت الفرصة للبقاء هنا كي أريح حصاني قليلا، وهكذا ركبت هذا اليوم حصانا مستأجرا - كان حصانا صغيرا وقويا، وكان نصر الدين يمتطي مهرة، وقد توترت العلاقة بيننا بعض الشيء، فحصاني كان يرفس ويندفع بسرعة أحيانا كلما تخلفت عنه المهرة. كنت سأركب الحصان نفسه إلى اجتماع الدروز، ولكن هذا لم يحدث.

٢١- الشيخ أبو علي يوسف حسن الهجري (١٨٧٢ - ١٩٣٦) من رجالات الجبل المعروفين، أحد أبرز الثوار في العهد التركي ومن أركان الثورة السورية الكبرى، رئيس الوفد المشكل من أعيان الجبل لمقابلة المفوض السامي في بيروت في حزيران ١٩٢٥ لعرض مذكرة عن الوضع الراهن في الجبل آنذاك، رئيس المجلس الوطني للثورة المشكل بعد مؤتمري شقا ومفعلة إبان الثورة السورية الكبرى في ٢٩ أيار ١٩٢٦.

المراجع: مقابلة مع الشيخ مسعود الهجري - قنوات ٢٠٠٧/٥/٢٩. مقابلة مع السيد حسن الهجري - قنوات ٢٠٠٧/٧/٨ . مذكرات سلطان الأطرش، مرجع سابق، العدد ١١٩، الحلقة ٢٣. الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش، دار طلاس، الطبعة الأولى ٢٠٠٧ ص ٨٢-٨٣ .

جاء لزيارتي رجل عجوز بالغ الظرف يدعى علي القاضي[٢٢]، وأخبرني بأنه لن يحدث شيء غدا. قص لي حكايات مشوقة عن الصحراء والرمال المتحركة، وبقي معي حوالي الساعة وقد استمتعت كثيرا بزيارته. تكلم بعربية جميلة للغاية لم أسمعها من قبل- كما لوكنت أقرأ كتابا عربيا. وشعرت بسعادة غامرة وأنا استمع إليه. جاء الشيخ يوسف لزيارتي ثانية. في المرة الأولى التي رأيته فيها سررت كثيرا بلقاء شخص مبجل ووقور مثله وفكرت أن علي أن أدعوه لزيارتي إلى خيمتي، لذلك فقد حضر وشرب قهوته وشرح لي مطولا لماذا لم يخبرني عن الجمعية (اجتماع الدروز)، ثم تبادلنا الأحاديث في السياسة وفي شؤون أخرى كانت كلها في غاية الأهمية.

<u>الأربعاء ٩ أيار ١٩٠٠ قنوات – سليم – شهبا</u>

قبل أن أغادر قنوات هذا الصباح زرت منزل صديقي علي القاضي لأشرب فنجانا من الشاي استجابة لدعوته لي. سألني عن ذوقي بشرب الشاي وإذا ما كان عليه أن يغلي الشاي والحليب معاً، فأجبته بأننا لا نشـــرب عادة الشاي بهذه الطريقة. وقدم لي طعاما

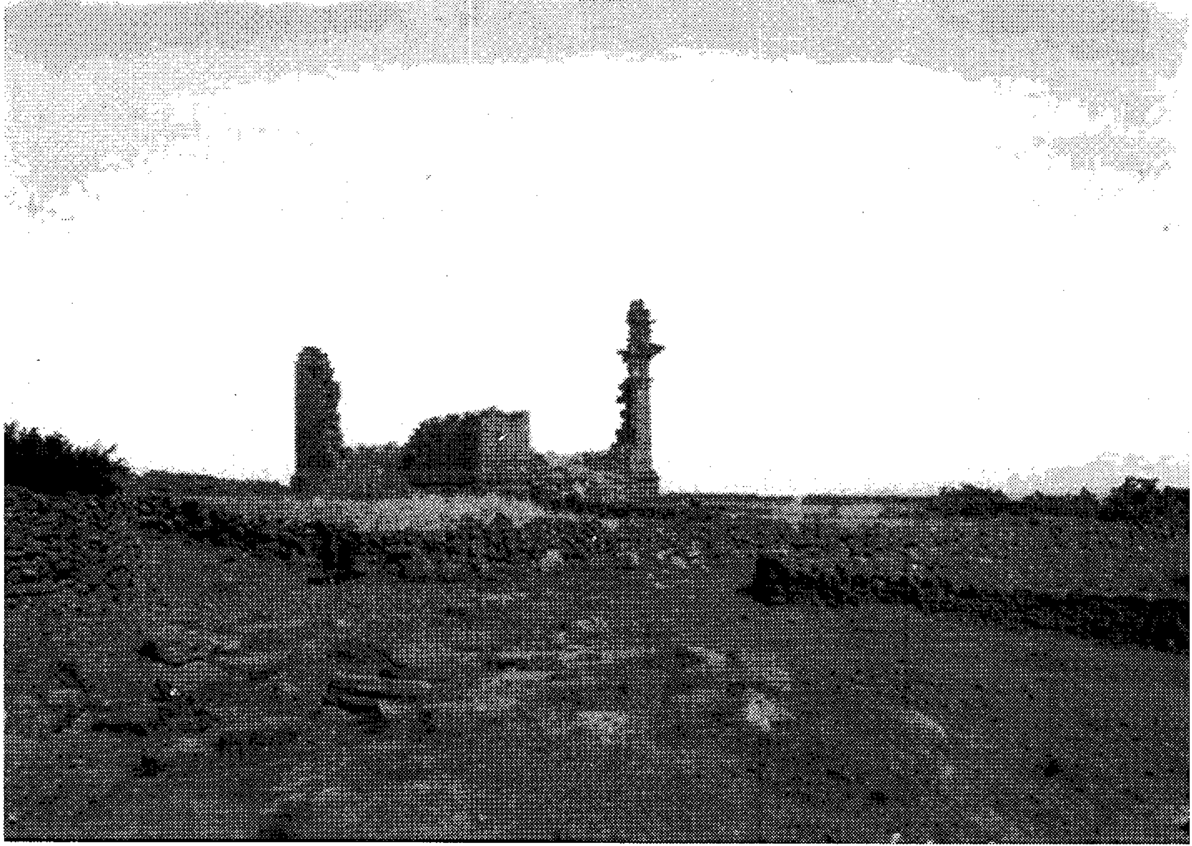
---

(٢٢) على الأغلب هو الشيخ علي القاضي رئيس أول مجلس بلدي في قضاء جبل حوران عام ١٨٩٠ ، ثم كاتبا لمديرية ناحية شهبا خلال عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٦

<u>المرجع</u>: تاريخ لواء حوران الاجتماعي ، مرجع سابق ص ٦٢ و ٧٣

متنوعا ولذيذا، هو نوع من الحلوى مغموس بالعسل، ولوزاً وزبيباً، داخل شراب حلو المذاق – كان اللوز لذيذا جدا. ومن حسن حظي أن هضمي للطعام مثل هضم النعامة، وشعرت بأنني آكل طعاما غريبا في ساعات أكثر غرابة. وأثناء ذلك أثار عجوز اسمه سليمان – وهوخادم المعبد – جلبة علمت بعدها أنها من أجل الإكرامية. افترقنا أنا ونصر الدين هنا لأني لم أعد بحاجة إلى خدماته. كنت سعيدة لأنه ظهر في معظم الصور التي أخذتها حين كان بصحبتي لأنه شخص جذاب بالفعل.

غادرت قنوات في الثامنة تاركة التلال الجميلة المكسوة بالأشجار الخضراء باتجاه السهول الغربية المزروعة بالذرة مرورا بمقبرة كبيرة تمتد على اليمين. لقد صعب علي ترك التلال الصغيرة، فعلى الرغم من صغرها، فقد كان هواءها نقياً كهواء الجبال، وكذلك مناخها. عاد الطقس الدافئ اللطيف هذا اليوم، فالتحقنا أنا وحنا بعلي ومعه البغال ونزلنا إلى السهل حيث مررنا بقرية سليم، حيث عثرنا على آثار لمعبد جميل (الصورة ١٦). وساومت على شراء قلائد مصنوعة هنا. كان منزل الشيخ جميلاً جدا ببابه المزخرف برسومات منحوتة بإتقان. تابعنا السير وطفنا حول الهضاب شمالا ثم شرقا. كان جبل الشيخ شامخا بذراه خلف السهول إلى الغرب منا، و خلفه إلى الشمال تمتد سلسلة جبال



الصورة١٦ : منظر عن بعد لمعبد روماني في سـليم مـن الطـراز الإيـوني- الكورنثي .

٩ أيار ١٩٠٠

عدسة: غيرترود بل

لبنان الشرقية المغطاة بالثلوج أيضا. ينتهي جبل الدروز بتلال بركانية صغيرة ، و تعتبر بداية المنطقة البركانية الصرفة ، التي تسمى اللجاة. أحد هذه التلال يسمى الغرارة، على سفحه الشرقي تقع بلدة شهبا و قربه تل الجمل، و هو كتلة من الحمم البركانية تبردت وشكلته على هذا الشكل الغريب .توقفت لأصور بوابة رومانية (الصورة ١٧) حيث تحصن الدروز في المعركة الأخيرة مع الأتراك، كانت آثار الرصاص بادية عليها، ثم انتقلنا إلى البوابة الأخرى التي قادتنا إلى البلدة بطريق معبدة، لكنها غير صالحة لسير الحيوانات عليها. مررنا قرب الحمامات لنصل إلى الساحة الرئيسية، ثم نزلنا عبر شارع آخر مرصوف يصل إلى البوابة الشرقية والبركة التي نصبنا مخيمنا قربها. كان وصولنا عند الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة. كنت متعبة فتغديت ونمت. كان لشهبا أهمية عظيمة فيما مضى. كان هناك طريقان عظيمان مرصوفتان بالبلاط البازلتي يمتدان من الشمال إلى الجنوب ومن الشـــرق إلى الغرب، ويلتقيان بســـاحة في الوسط فيها أربع قواعد



الصورة ١٧ : بوابة في شهبا ،القرن الثالث الميلادي . ٩ أيار ١٩٠٠ .
عدسة: غيرترود بل

لتماثيل يبدو أنها كانت موجودة في المكان[٢٣]. وهناك آثار لحمام عظيم، ومعبدين، ومسرح، ومدرج روماني (حول إلى كنيسة كما يقولون)، وجامع، ومن الغريب وجود مثله هنا، فنادرا ما تجد بقايا آثار إسلامية في هذه المنطقة. ويظهر أن القرى قد هجرت بسبب غزوات البدو، حتى جاء الدروز ليسكنوها و يحيوها من جديد. لكن إقامة الدروز فيها لم تكن أقل تخريبا لها من غزوات البدو. كل بناء قديم هنا مسكون، والمسرح الذي يفترض أن يكون بأحسن حال لتأدية الغرض الذي أنشئ من أجله جرى تشويهه وتحويل أروقته إلى مساكن وإسطبلات. كسروا المقاعد أو أزالوها لجعل الطريق أسهل، وبنوا جدرانا من الأحجار المتساقطة في المكان ليفصلوا البيوت بعضها عن بعض. وآخر مآثر هذا المكان هو مشهد المعركة الأخيرة بين الدروز والأتراك[٢٤]، فمن هنا كان انسحاب الدروز نحو اللجاة. كان أخي علي قد شهد هذه المعركة كاملة وأراني كيف تحصن الدروز خلف

٢٣- في الحقيقة هي قواعد الإنشاء المعماري المسمى (التترابيل)، وكان موجودا في تخطيط المدينة الرومانية- الذي بنيت شهبا على أساسه- عند تقاطع الشارعين الرئيسيين في المدينة، أولهما يدعى (كاردو) ويتجه شمال جنوب، والثاني (دوكيومانوس) ويتجه شرق غرب . وقد شيد مكان هذا البناء في شهبا مستديرة وضع في وسطها منحوتة تمثل دلة القهوة العربية .

٢٤- جرت هذه المعركة في منتصف تموز ١٨٩٧ بعد كبسة قنوات الآنفة الذكر. كان الجيش التركي قد خيم خارج البلدة قبل الوصـــول إليها فشـــن الثوار عليه هجوما ←

الجدار الجنوبي المهدم وأطلقوا نيرانهم من خلال البوابات الرومانية. وقد هدمت هذه البوابات كلها بفعل قنابل الأتراك التي اطلقوها باتجاه الدروز. أرسلت علي إلى الشيخ أبي طلال(٢٥) في أم الزيتون ليسأله إن كان اجتماع الدروز سيعقد غدا، فهو أحد الزعماء البارزين هنا. فكان رده بالإيجاب، وأنه سيصطحبني معه عند مروره من هنا.

← ليلا. لكن الجيش تقدم نهارا ودخل شهبا بعد معركة دامت ثلاث ساعات، خسرالدروزفيها الكثير من رجالهم وانسحب الباقي إلى اللجاة. من أشهر شهدائها سعيد نصر شيخ نجران.
المراجع: الدروز، ماكس فون أوبنهايم، الطبعة الأولى، دار الوراق، لندن ٢٠٠٦ ، ص ١٣٠. العامية، مرجع سابق ص ٣٥٤ .

* يذكر اوبنهايم خطأ أن هذه المعارك حدثت عام ١٨٩٦، ومنه أخذت الآنسة بل هذا التاريخ لأنها قرأت كتاب أوبنهايم كما سيأتي لاحقا .

٢٥- الشيخ وهبة عامر: أحد زعماء الجبل المرموقين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين. شارك في المعارك التي خاضها أهل الجبل ضد الدولة العثمانية ، وبخاصة في معركة قراصة ١٨٧٨ . تعاطف مع آل الحمدان و سعى لعودتهم الى الجبل بعد طردهم منه من قبل ابراهيم الأطرش. عضو مجلس ادارة الحكم في قضاء جبل حوران عام ١٨٨٩ ، قبل أن يستبعد من المجلس إثر اشتراكه في الحركة العامية . اختلف المؤرخون حول دوره في الحركة العامية في الجبل ١٨٨٨-١٨٩٠ ، فمنهم من عده " شيخ العامية " في المقرن الشمالي ، بينما عزا آخرون سلوكه و بعض المشايخ الآخرين إلى إضعاف مشيخة الطرشان الأولى في البلد و الوصول الى المرتبة الأولى بدلا منهم . نفي مع زعماء الجبل الى الأناضول عام ١٨٩٦ . كان يسكن أم الزيتون قبل أن يسعى مع حلفه و أنصاره من آل عامر للانتقال إلى شهبا .
المراجع:. العامية ، مصدر سابق ص ٣٨٧ . تاريخ لواء حوران الاجتماعي مصدر سابق ص٤٠

الخميس ١٠ أيار ١٩٠٠ شهبا – الصورة الكبيرة

استيقظت باكرا بانتظار الشيخ أبي طلال. زارني شيخ البلدة و أكد لي أن بأمكاني الذهاب إلى الاجتماع. لكن أبا طلال لم يحضر رغم أن الساعة بلغت الثامنة. ورأيت أن سفر خمس ساعات على صهوة جواد ليس بالأمر السهل. ولأن الشيخ لم يصل مبكرا قررت على مضض أن أمضي قدما نحو الشمال. وفي اللحظة التي هممت فيها بالمغادرة وصل خيال من السويداء ليقول بأن الاجتماع تأجل إلى يوم الغد. ولكن هذا لم يكن صحيحا، وأعتقد بأن سبب ذلك هو الخوف من إثارة البلبلة فيما لو كنت بين الموجودين أو أن البعض قد يعترضون على وجودي أصلا. ربي وحده يعلم بأنني لا أريد بهؤلاء القوم شرا، لذلك كنت مسرورة بالموقف الذي اتخذته. ينبغي على المرء أن يتوخى الحذر عندما يتعامل مع الشرقيين، فهم لا يقولون لا بشكل مباشر، وعليك أن تقرأ ما بين السطور. توجهت شمالا والتقيت أبا طلال في طريقي. حياني فرددت بالمثل وأرسلت معه رسالة إلى يحيى بك. عندما وصلت إلى أطراف التلال رأيت اللجاة أمامي رقعة واسعة من الصخور البركانية وتحيط بها حقول الذرة وخط من القرى السوداء يمتد على حوافها (تسمى اللحف). إنه مكان غير عادي، لكنني قررت بعد تفكير أن أستثنيه من رحلتي. فقد كان من الصعب على

الدواب أن تسير في مثل هذه المسالك الصخرية الوعرة، وهو ما يعني أيضا بأن الرحلة ستزداد يوما آخر وكنت أتوق شوقا إلى الوصول إلى دمشق في الموعد المحدد. إضافة إلى هذا كان الجو حارا جدا هنا وتوقعت أن يكون الأمر أسوأ بين صخور اللجاة. نويت أن أعود ثانية من دمشق في يوم ما وأستكشف المنطقة عن كثب. كانت القرى كلوحة رائعة، فقد بنيت جميعها من الحجر الأسود و أعيد ترميمها بصورة أفضل مما هي عليه في الجبال. سرنا طيلة النهار على امتداد اللحف، كانت اللجاة على يسارنا وجبل الشيخ أمامنا تحيط به جبال لبنان. توقفنا في حدر(٢٦) وتغدينا تحت شجرة تين. نبات الذرة ناضج هنا والناس يقتلعونه من جذوره، وهذه طريقة الحصاد عندهم. كانت الرحلة ممتازة استمتعنا بها كثيرا. وفي نحو الرابعة وصلنا آخر قرية إلى الشمال الشرقي من اللجاة، هي الصورة الكبيرة، ونصبت مخيمي قرب البركة خارج القرية. لم يبق لي سوى سبع إلى ثمان ساعات حتى أصل إلى دمشق. كانت هذه آخر قرية درزية. وجاء الشيخ وكل وجهاء القرية لزيارتي ودعوني لدخول القرية وإلقاء نظرة عليها عن قرب. يا لهم من أناس طيبين. شعرت بحزن شديد جدا على فراقهم.

٢٦- حدر ، خربة أثرية بين قريتي لاهثة و رضيمة اللوا ، تتبع لاهثة.

على كل حال لم أكن قد تركتهم بعد ،لأن الشيخ إبراهيم[٢٧] لا زال أمام باب خيمتي و أنا أكتب. وقد قام بواجبه تجاهي خير قيام. وقاد ابن عم الشيخ البغال إلى النبي موسى. كان الشيخ ابراهيم رجلا ودودا ، طويل القامة وجميلا ، لكنه نحيف قليلا. وجاء رجل آخر بعين واحدة كان سجينا في أزمير[٢٨]، ذهبت إلى منزله تلبية لدعوته. كانت زوجته[٢٩] تتكلم قليلا من الألمانية.

٢٧- الشيخ ابراهيم زهر الدين (١٨٦٣م - ١٩١٣) أحد الأشقاء الخمسة للشيخ واكد زهر الدين، شيخ الصورة الكبيرة. خيال ورماح من الدرجة الأولى. سجن في اللومان بدمشق بسبب صدامه مع الأتراك. توفي متأثرا بمرض، ولم يبلغ الخمسين من عمره.
مقابلة شخصية مع السيد مجيد زهر الدين – الصورة الكبيرة في ٢٨ / ١٠ / ٢٠٠٧

٢٨- الشيخ حسين زهر الدين (١٨٦١ م - ١٩٣٧) . شيخ الصورة الكبيرة بعد شقيقه واكد . نفي مع شقيقيه أحمد و أنيس الى بورصة (و ليس أزمير) عام ١٨٩٦ أو ١٨٩٧. هرب مع أخويه عام ١٨٩٨ من السجن ونجا وأخوه أنيس بأعجوبة بعد أن قتل الأتراك شقيقهما أحمد وتركاهما مربوطين في العراء لتنهشهم الوحوش. وهو والد الفريق عبد الكريم زهر الدين ، وزير الدفاع و قائد الجيش السوري الأسبق . عين عام ١٩٢١ عضوا في برلمان (دولة جبل الدروز) كما عمل رئيسا لإحدى المحاكم فيها.
مقابلة شخصية مع السيد مجيد زهر الدين–الصورة الكبيرة، ٢٨ /١٠/ ٢٠٠٧. جبل الدروز، مصدر سابق ص ١٧٣

٢٩- السيدة نايلة التيماني زوجة الشيخ حسين زهر الدين. سيدة لبنانية متعلمة و مثقفة، علمت جميع أولادها ، لذا لا عجب ان كانت تتقن بعض الألمانية كما تذكر الآنسة بل.
المرجع: مقابلة شخصية مع السيد مجيد زهر الدين – الصورة الكبيرة في ٢٨ / ١٠ / ٢٠٠٧

وجدت هنا آثار كنيسة وكثير من أبواب الحلس. كانت البلدة قد أعيد بناؤها بصورة متقنة. وصلت إلى منزل الشيخ، كان المنظر فريدا من أعلى المنزل على السطح، أما الغرف فكان أثاثها جميلا ومفروشة بالسجاد. عدت إلى المخيم وسبحت في البركة، لكني اعتقدت بأنها كانت تحوي علقا. بت ليلتي هنا وكانت حارة للغاية. وقد عاد الشيخ في الليل وكان قد ترك ثلاثة رجال يحرسون خيمتي.

الجمعة ١١ أيار ١٩٠٠ الصورة الكبيرة – الطريق إلى دمشق

استيقظت في الرابعة ، بعد ليلة مؤرقة بسبب الذباب والجو الحار. وظهر عن قرب أحد أصدقائي الدروز من الكفر كان بطريقه نحو دمشق، رافقنا اليوم بطوله. كان اسمه حمد، " الله يحميه" ! غادرنا القرية عند السادسة و بعد ساعة من السير وصلنا إلى براق و عبرنا أول حامية تركية دون أي ملاحظة تذكر. وبدت الساعات الخمس الأخيرة وكأنها لن تنتهي أبدا. كنا نعبر حقل ذرة لننتقل إلى حقل مثله . غادرنا اللجاة أخيراً، وكان لافتا للنظر رؤية أول قرية بيضاء وبنية اللون بيوتها من الطين والجص. وتشعر بالدهشة حين تعود إلى التفكير بتلك القرى البركانية السوداء التي شاهدتها كل تلك الأيام الماضية . تابعنا أنا و حنا المسير، وعند الثانية عشرة توقفت للغداء تحت شجرة مشمش لذيذة قرب أحد

الخانات. و بعد استراحة ساعة في المكان تابعنا المسير بصحبة حمد، وعند الرابعة دخلنا المدينة الشرقية الرائعة، دمشق.

مذكرات الرحلة الثانية

إلى جبل الدروز

١٤ – ٢٧ شباط ١٩٠٥

مقدمة

في كانون الثاني عام ١٩٠٥ عادت غيرترود بل من جديد إلى المنطقة، وصلت إلى بيروت حيث اشترت حصانين قويين واتجهت جنوبا على طول الساحل، وكان يرافقها طاقم صغير من مرافقين، وقادت معها اثنين من البغال لحمل خيمتها وأغراضها وبعض الهدايا التي قد تقدمها للشيوخ. كانت بدايتها سيئة فقد واجهت الأمطار الغزيرة والأوحال في طريقها من بيروت إلى القدس. كان هدفها المعلن العودة مرة أخرى إلى جبل الدروز من دون الاتصال بالسلطات التركية التي تمكنت من الفرار منها في المرة السابقة. لقد أصبحت الآن تجيد اللغة العربية جيدا، فتقرأ شعر المعلقات والمتنبي وتهتم بالأمثال العربية. وكان استخدامها لبعض الكلمات العربية القديمة مثار اهتمام من سمعوها. وبواسطة دراسة الخرائط، استطاعت أن تحدد الطريق الذي يجعلها تتفادى الأتراك للوصول إلى جبل الدروز، فاختارت الولوج إلى الجبل من الجنوب عن طريق أم الجمال بعد أن رافقها أحد أفراد قبيلة الدعجا البدوية حتى وصولها إلى أطراف الجبل[٣٠]. ومن هناك تابعت بل سرد حكايتها في تلك الرحلة.

٣٠- مس بل " ابنة الصحراء و عاشقة الشرق " قصة حياة غيرترود بل ، جورجينا هاويل - حلقات متسلسلة على صفحات جريدة القبس الكويتية ٢٠٠٧ .

الثلاثاء ١٤ شباط ١٩٠٥ أم الجمال

لم يخل مسيرنا اليوم من الإثارة. عبرنا في البداية جدولا غمرته مياه الأمطار كان يجري متدفقاً بسرعة، حتىوصلت المياه إلى سروج الخيل وكادت الحمير تغرق. كانت حواف الجدول عالية وموحلة. ولكنه وجود قبلان معي لا يقدر بثمن؛ فقد عبر بفرسه إلى الضفة المقابلة، ثم عاد وأخذ البغال واحدا إثر الآخر وأوصلها إلى بر الأمان. كنت شاكرة جدا لرؤيتها وهي تعبر بسلام. ومن تلك النقطة دخلنا إلى أرض حوران الصخرية السوداء. بدأت خيام بني حسن البدوية تختفى شيئا فشيئا وأخيرا اقتربنا من سهل عظيم. منبسط للغاية، يمتد مسافة يومين حتى جبل الدروز. كان قبلان قلقا لأن بدو الجبل ليسوا على وفاق كبير مع الدعجا، قبيلته . إضافة الى ذلك لم نكن نعلم بالضبط في هذا السهل الواسع أين تقع أم الجمال، وهي المكان الذي نقصده. تابعنا المسير.. سرنا وسرنا حتى صادفنا أخيرا وسط مرج صغير بعض الرعاة. وفي الوقت ذاته قدم اثنان من السهل باتجاهنا من اليمين وحالما اقتربا بدآ بإطلاق النار وهذه هي التحية المعتادة لأي شخص لا يعرفونه! وقف قبلان على ركابي السرج، وحمل عباءة الفرو وبدأ يلوح بها فوق رأسه. اقتربنا من الرجلين، وهو ما أكد لهم حسن النوايا وتبادلنا التحيات على أحسن ما يكون. ووجهونا في المسير إلى

مقصدنا، وفترة لم تطل كثيرا شاهدنا أبراج أم الجمال وأسوارها[٣١] أمام ناظرينا. وقد بدت كمدينة عظيمة وعندما يقترب المرء منها يجدها أطلالا فارغة، شوارع تحيط بها منازل بارتفاع ثلاث طبقات كلها من الحجر الصلد الجميل بأدراج خارجية من الحجر ونوافذ مقوسة. نصبت مخيمي في فسحة في المنتصف، وعلى مقربة من عدة خيام بدوية. وعند الغروب انطلقت أسير بين الآثار على مسافة بعيدة من المخيم جاء قبلان مسرعا ملهوفا ليقول، إنه لو رآني أي بدوي عند الغسق وأنا ألبس معطف الفرو فإنهم سيأخذونني إلى الغول.. .. ويقتلونني. غادرنا قبلان في هذا اليوم وهو بغاية الرضا، فقد أعطيته ثلاثة جنيهات، ودفعت مجيديتين ثمنا للشاة التي أخذناها من بدو الدعجا. أسفت لمغادرة قبلان، فقد كان مرافقا مبهجا، وسيصبح رجل محترم اسمه فندي دليلنا غداً. القطعان الموجودة هنا كلها للدروز، والبدو رعاة لها فقط. كان شبلي بك قد مات – يقولون إنه سُمّم لأن شعره بالكامل سـقط عن

٣١- مدينة أثرية تقع اليوم في الأراضي الأردنية على مقربة من الحدود السورية . يرجع تاريخها الى العصر النبطي ثم الروماني فالبيزنطي . اشتهرت تاريخيا بأنها كانت ملتقى للطرق التي ربطت فلسطين و الأردن و سوريا . سكنها الأمويون، لكنها أهملت زمن العباسيين و هجرت بعد ذلك . يوجد فيها بقايا حصون و عدة كنائس و أحواض ماء مسقوفة أو مكشوفة، فضلا عن بقايا موقع عسكري روماني.
المرجع: الموقع الألكتروني: ويكيبيديا الموسوعة الحرة **www.wikipedia.com**

رأسه، وأعتقد أن هذا ليس بعيد الاحتمال.

الأربعاء ١٥ شباط ١٩٠٥ أم الرمان

حططنا الرحال في أول قرية درزية هي أم الرمان (هذا هو اسمها، رغم أنني لم أر فيها أي شجرة رمان)[٣٢] كنا قد سرنا ست ساعات مضجرة في سهل صخري بدا و كأنه لا نهاية له، و قد بدد قليلا من هذا الضجر صيد بعض الأرانب النائمة تحت الصخور. لم يكن صيد الأرانب رياضة محببة، ولكن كان لا بد منها في مثل هذا الحال. مررنا على بلدتين مهدمتين كأم الجمال، صبحة وصبحية، ومررت بالأخيرة على عجل. كان هناك بركة كبيرة في وسط القرية قرب أحد الأبراج. والبيوت هنا ليست مبنية بطريقة متقنة. تركنا تل الشيح على يميننا وصعدنا إلى أم الرمان، أول قرية درزية في هذه الجهات. كانت الأرض موحلة في كل مكان حولنا، فبدأت البحث عن مكان أقيم فيه مخيمي. دعاني أهل القرية إلى أحد الأماكن، لكنه كان في غاية السوء قرب إحدى المقابر فرفضت. وتوجهت إلى شيخ القرية فوجدته واقفاً على سطح بيته يراقب بعض الأعمال في الخارج. عرضت عليه طلبي،

٣٢- ربما كانت مشهورة بالرمان قديماً، وقد سموا كذلك (أم الزيتون) و(أم القطين) أي التين، وهي تسميات بدوية متأخرة. ويقال أن أصل التسمية هي (أم الرومان) لما كانت تحويه البلدة من آثار رومانية . ثم حرفت مع الزمن إلى أم الرمان .

فأرسل معي أحدهم ليريني مكانا آخر. ووجدته مناسبا جدا، موقعه في شمال شرق القرية، قرب ماء جار، وحينئذ نصبنا الخيام. وبعد أن استرحت وشربت الشاي خرجت من الخيمة لأتمشى قليلا فشاهدت على بعض الأحجار كتابات كثيرة ونقوشا قررت أن أنسخها في الغد. بعدذلك توجهت إلى منزل الشيخ. وهو رجل عجوز اسمه محمد، من آل الأطرش(٣٣) (الصورة١٨)، الأسرة العريقة التي تجمعني بها صداقة قديمة. والشيخ محمد ابن عم يحيى بك، و هو متزوج من أخت يحيى و له ولد واحد يدعى سلمان(٣٤)،

٣٣- المقصود هو الشيخ حمد الأطرش و ليس محمد كما تذكر الآنسة بل نفي مع ولده سلمان ، و كان صغيرا آنذاك ، إلى الأناضول مع زعماء الجبل الآخرين . توفي على الأغلب في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين .

المرجع : مقابلة شخصية مع السيد سلمان سالم الأطرش – أم الرمان في ٢٠٠٧/١١/١١

٣٤- سلمان الأطرش (١٨٨٢؟- ١٩٥٤) من أركان الثورة السورية الكبرى و رفيق سلطان الأطرش في جميع ثوراته .شارك مع ثوار الجبل في الثورة العربية الكبرى و دخل مع جيوشها إلى دمشق عام ١٩١٨ . شارك في ثورة سلطان الأولى عام ١٩٢٢ و قصفت داره ذلك العام عند تعقب الفرنسيين له لدى عودته من الأردن إلى بلدته . شارك في معظم معارك الثورة السورية الكبرى ، و عاد إلى بلدته عام ١٩٢٧ بعد صدور العفو الخاص عن بعض المجاهدين . كان لقبه دبابة الجبل . سقط شهيدا ليلة ١٩٥٤/١/٢٩ في نمرة القريا أثناء هجوم قوات الشيشكلي على القريا في الأحداث المؤسفة المشهورة بحوادث الشيشكلي و التي كانت سببا في زوال حكمه في ٢٦ شباط ١٩٥٤ .

المراجع :. صراع بين الحرية و الاستبداد، فارس الحناوي ، الطبعة الأولى ، دار علاء الدين ٢٠٠٠ ، ص ١٣٠ . مقابلة شخصية مع السيد سلمان سالم الأطرش – أم الرمان في ٢٠٠٧/١١/١١



الصورة ١٨: محمد الأطرش (الصحيح حمد الأطرش). أم الرمان

١٥ شباط ١٩٠٥

عدسة: غيرترود بل

جذاب في نحو الخامسة عشرة من عمره، قدم لي القهوة، تحدثنا عن الحرب في اليمن وفي مصر. كان شخصا ودودا للغاية. من الممتع أن أكون بين هؤلاء الناس مرة أخرى. والسفر في هذا الجو مبهج جدا، ولكن الحال يتغير في الليل، وخصوصا بعد منتصفه حيث يشتد البرد القارس.

الثلاثاء ١٦ شباط ١٩٠٥ أم الرمان – صلخد

في هذا الصباح تجمد الماء في خيمتي وقد صحوت قبل شروق الشمس لأهيئ نفسي وأرتدي ملابسي والصقيع ينتشر من حولي. بدأت يومي بنسخ الكتابات والنقوش التي رأيتها بالأمس، وكنت محظوظة لأن العديد منها كان مكتوباً باللغة اليونانية وواحد منها بالكوفية وآخر باللغة النبطية. الله وحده يعرف ماذا تعني تلك الكتابات، لكني سأحتفظ بها والعارفون بأمرها سوف يقرؤونها لي. بعدذلك تناولت الفطور مع الشيخ محمد الأطرش، وكنت في غاية الانشراح. ثم غادرت إلى صلخد.

كانت رحلة لطيفة برفقة صديق يدعى صالحا، وهو شاب ذكي ما برح يسألني عن كل العادات والتقاليد الإنكليزية، وحتى الطلاق، وقد أجبته على كل ما طلب كما ينبغي. وكان بشوق لمعرفة رأيي بموضوع خلق الكون، لكني وجدت أنه موضوع صعب جدا، وخشيت إن أبديت رأيي بصراحة أن تختلط عليه

الأمور ولا يسر كثيرا بما سأبوح به. كان الطريق الى صلخد موحلا جدا ولم يخل المكان من بقع من الثلج هنا وهناك. كانت جميع التلال المحيطة بنا مغطاة بالثلج. وصلنا صلخد في الساعة الواحدة والنصف وذهبت مباشرة الى منزل الشيخ نسيب الأطرش(٣٥) فاستقبلني مع شقيقه جاد الله بكل ترحاب. والشيخ نسيب في التاسعة و الثلاثين من عمره – كما قال لي – لكن يبدو أنه أكبر من ذلك. ولاحظت أن له ذلك الوجه الدرزي المتمرد، بقسمات تميل إلى الدهاء أكثر منها إلى الصفاء. نصبنا خيامنا في الحقل قرب بركة ماء ضخمة أسفل القلعة . في البلدة حامية تركية، وقائممقام، ولذلك لم أستطيع أن أتكلم بأي موضوع خاص مع نسيب، فكلما نويت ذلك اقترب أحد الموظفين الأتراك حتى يصبح على مرمى السمع منا، وعندها نقول: كم المناخ متقلب هنا! جاء نسيب إلى خيمتي عند الخامسة لكني كنت قد خرجت لمشاهدة غروب الشمس من أعلى القلعة.

٣٥- نسيب محمد الأطرش (١٨٦٢؟ – ١٩٢٥) شيخ صلخد . عضو المؤتمر السوري الأول ١٩١٩ . معتمد حكومة الجبل في دمشق منذ عام ١٩٢١وحتى الغاء المعتمدية من قبل كاربييه عام ١٩٢٤ . من أركان الثورة السورية الكبرى وكبار زعمائها. استشهد في معركة المجيمر في ٣ تشرين الأول عام ١٩٢٥ .

المراجع : حديث مع د. نسيب الأطرش – صلخد ٢٠٠٧/١١/٤ . تاريخ الثورة السورية ، محي الدين السفرجلاني ، دار اليقظة العربية –١٩٦١ ، ص ٥٨٠ .

وعندما ذهبت إلى منزله ثانيه وجدت عنده المدير التركي الذي يسكن قرب منزله ويقوم بعمل الجاسوس على نسيب.

والواقع أن مقصدي من زيارة هذا المكان هو أنني أنوي السفر شرقا إلى مكان ناء في الصحراء يدعى الصفا، وأريد أن أكون بحماية الدروز، لكن الأتراك لا يريدون ذلك أبدا. كانوا طيلة الوقت يحاولون إقناعي بأن الأمر بغاية الخطورة، لكني لم اصدق أي كلمة تفوهوا بها.

وصلخد بلدة سوداء بركانية صغيرة، تقوم على المنحدر الجنوبي لتل بركاني، وعلى فوهة البركان بنيت قلعة فريدة في نوعها. شهدت في الأسبوع الماضي أمطارا غزيرة، وشهدت صلخد ثلوجا لا زالت آثارها على الجهة الشمالية من البركان، وحول خيمتي تناثرت بقع من الثلج هنا وهناك. بينما كنت أتعشى هذه الليلة وأنا منشغلة بالتفكير بطريقة ما لتسيير أمور رحلتي، سمعت جلبة كبيرة وصوت أغان حماسية ترافقها أصوات طلقات رصاص. خرجت من الخيمة فرأيت نارا منطلقة من أعلى القلعة. يا إله السماء ما عسى أن يكون هذا ! إنها دعوة إلى حمل السلاح. إن الدروز وبني صخر أعداء ألداء، وقبل شهر سلب الصخور ٥٠٠ رأس من الماشية من حظائرهم الموجودة في السهل. وغدا

سيغير الدروز عليهم بألفي فارس لاستعادة قطعانهم وقتل أي رجل أو امرأة أو طفل من الصخور يقف في طريقهم[٣٦].

كان إضرام النار هو إشارة إلى القرى المجاورة كي تشارك في الحرب. غدا سيتجمعون هنا، وبقيادة نسيب سينطلقون. كان أحد العسكر يجلس قرب نار خيمتي مرتدياً لباسا تركيا ولكنه درزي من صلخد، ويكره الأتراك بالقدر الذي يكرههم أي درزي.

قلت له : " هل من مانع أن أصعد الى موقع التجمع ؟"

فأجاب : " على الإطلاق ستشرفيننا ".

وتحت ضوء القمر تسلقنا معا الجانب الشمالي من التل المغطى بالثلج. وهناك على القمة، على حافة الخندق المائي المحيط بالقلعة، وجدنا مجموعة من الدروز، رجالا وأولادا اصطفوا في حلقة وهم ينشدون أغنية حماسية. كانوا جميعا مسلحين، ومعظمهم كانوا يحملون سيوفا ويرددون:

- " يا الله ، يا رب ، عليهم .. عليهم .. "

انضممت إلى الحلقة مع مرافقي ، بينما واصلوا أناشيدهم:

- " دع الطفل يغادر حجر أمه ! دع الشاب يمتطي جواده ويجري"

كانوا يرددون هذا المقطع مرات ومرات. ثم دخل عدة رجال داخل

٣٦- لقد خان الآنسة بل حسن التقدير في هذا الأمر ، فليس من عادة الدروز و لا البدو قتل النساء و الأطفال في غزواتهم.

الحلقة يهز كل منهم هراوته أو سيفه أمام وجه أولئك المتجمعين في الحلقة ويخاطب واحداً منهم قائلا:

- " هل أنت رجل بارع ؟ هل أنت رجل حقيقي ؟ هل أنت شجاع ؟ " فيجيب الجمع من حوله:

- " ها ها ! " وتلتمع السيوف تحت ضوء القمر. ثم أقبل العديد منهم و سلموا علي قائلين:

- " السلام عليك " . فأجبتهم:

- " إن الانكليز والدروز متشابهون، الشكر لله كلانا شعب مقاتل" عندما سمعت أناشيدهم أدركت أن أجمل شيء في الوجود هوالذهاب لقتال عدوك وقتلته.

انتهى التجمع فنزلنا معا من أعلى التلة، وقد سلك الكثير منهم طريقهم عبر أسطح المنازل – كنا قد فعلنا ذلك مرات عدة في السابق، إذ إن السير على أسطح المنازل أسهل من السير في الشوارع الموحلة. استمعت إلى حديث العديد منهم قبل أن أغادر محملة بالكثير من السلامات والأماني الطيبة طيلة مشواري من قمة التلة إلى خيمتي. ولم يكن هذا نهاية الحديث، فقد علمت أن العسكري الذي رافقني لم يكن سوى مبعوث نسيب ليعرض علي أن أبقى وأنتظر خدماته لي للذهاب إلى أي مكان أريد.

الجمعة ١٧ شباط ١٩٠٥ صلخد

أمضيت يوما جميلا مع نسيب، وقد تأجل الغزو يوما أو يومين، بسبب خلاف نشب بين بعض الشيوخ الدروز، وخشيت أن لا أتمكن من رؤية تجمع الدروز قبل انطلاقهم إلى غزو بدو بني صخر. زارني نسيب في الصباح الباكر، وعندما غادر ذهبت لرؤية القائمقام الذي بدا رجلا مهذبا ولطيفا. كان اسمه يوسف أفندي، وهو من تبليسي، وقد تحدثنا بالفرنسية. وقد وجدت نسيبا هناك، فشربنا القهوة وتحدثنا. رايت طابوراً من العسكر ولاحظت أن معظمهم من الدروز. وهناك أيضا خط برقي إلى السويداء. وبعدئذ كان لا بد من حفلة تصوير كبيرة فقد اضطررت إلى تصوير العديد من الناس بعد أن صورت نسيبا (الصورة ١٩) وشقيقه جاد الله. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة فدعاني نسيب وشقيقه إلى الغداء. وبعد الغداء كان نسيب ينوي الركوب إلى قرية صغيرة إلى الجنوب لفض خلاف نشب بين بعض الشيوخ. أما أنا فكنت أنوي زيارة مزاريقع على تلة قريبة، لذلك فقد سرنا معاً جزءا من الطريق مع عشرين خيالا. كان الجميع مدججين بالسلاح،



الصورة ٢٠: نسيب الأطرش، صلخد

١٧ شباط ١٩٠٥

عدسة: غيرترود بل

وأنا من بينهم. سمعت في هذه الاثناء بوجود مكان جميل إلى الجنوب الشرقي، ولا أعتقد أن الأوروبيين وصلوه من قبل، وها أنا أحاول الوصول إليه. سرت معهم حتى وصلت قرب مزار الولي الخضر، فصعدت إليه أنا و ميخائيل. وكان هناك مزار صغير من النموذج نفسه بأبواب حجرية. وفي الداخل قبر من الحجارة المغطاة بأقمشة ملونة ووعاء من الحجر فيه ماء. وبعد جولة قصيرة، عدت أدراجي الى المخيم وقابلت القائمقام وحدثته عن رحلة مقترحة الى قلعة الأزرق. حدثني القائمقام عن الدروز واهتمامهم الشديد بالحرب الدائرة في الشرق الأقصى(٣٧) فهم يعتقدون أن اليابانيين دروز.(٣٨)

<u>السبت ١٨ شباط ١٩٠٥ صلخد</u>

كان الجو باردا جدا اليوم، وتساقط الثلج قليلا - تماما كعاصفة ثلجية في يوم من أيام شباط في انكلترا. لذلك فقد قررت ألا أغادر

٣٧- الحرب اليابانية الروسية ١٩٠٤ - ١٩٠٥ : حرب دارت بين الدولتين ، و قد انتصرت اليابان في تلك الحرب بعد سحقها القوات الروسية في معركة تسوشيما البحرية ، و بذلك وقفت في وجه السياسة الروسية في الهيمنة على الشرق الأقصى و أصبحت القوة الآسيوية الأولى في العصور الحديثة .

المرجع : wars of the world الموقع اللكتروني <u>www.onwar.com</u>

٣٨- ربما المقصود الصينيون و ليس اليابانيون ، لاعتقاد سائد عند الدروز عن مكان مقدس اسمه الصين ، و ليس بالضرورة أن تكون الصين الدولة المعروفة في الشرق الأقصى . كما أن الدروز لا يقولون أن الصينيين أو اليابانيين دروزا .

حتى صباح الغد. أمضيت الصباح أقرأ شعر المتنبي، ثم أكملت يومي في عقد صداقات مع الموظفين الأتراك، وخصوصا مع مدير المالية ملحم أفندي. وهو رجل محترم، ذكي، مسيحي من دمشق. زرته في الصباح ثم جاء لزيارتي بعد ذلك. وبالنتيجة خلصت إلى أن بإمكاني الذهاب إلى أي مكان أشاء، ولن يأل أحد جهدا في تقديم أي مساعدة أريد. عندما زرت ملحم أفندي كان نسيب عنده. كان ملحم يعرف عالم الآثار دوسو جيدا فقد سافر معه في رحلته[٣٩] وقد حضر في ذلك الحين آغا عجوز كردي، ولكني غادرت المكان بعد ذلك بقليل. وسمعت أن مارك سايكس[٤٠] قد وصل إلى السويداء مع مرافقة رســمية، هذا يعني أن بالإمكان طلب إذن إذا

٣٩- رينيه دوسو (١٨٦٨ – ١٩٥٨).مستشرق و عالم آثار فرنسي . اهتم بدراسة ديانة الحثيين و الحوريين و الفينيقيين و السريان . درس المواقع الأثرية في الصفا و الحرة شرق جبل العرب عام ١٩٠٠ و اكتشف مئات النقوش الصفائية ، كذلك فقد اكتشف في موقع النمارة ما يعد أقدم نقش عربي يؤرخ لوفاة ملك عربي يدعى امرأ القيس بن عمرو عام ٣٢٨ ميلادي ، و هو ما يعرف بنقش النمارة ، المحفوظ بمتحف اللوفر في باريس . له مؤلفات كثيرة ترجم منها الى العربية كتابه " العرب في سوريا قبل الإسلام "

المراجع: الموقع الالكتروني /http://de.wikipedia.org ، العرب في سوريا قبل الإسلام، رينيه دوسو الطبعة الثانية ، دار الحداثة – بيروت ١٩٨٥ .

٤٠- البارون مارك سايكس (١٨٧٩ – ١٩١٩) : دبلوماسي ورحالة بريطاني ولد في لندن وتلقى تعليمه في موناكو وبروكسل وكمبردج . عمل في الجيش البريطاني بعض الوقت في جنوب أفريقيا وسافر إلى سوريا والعراق عام ١٩٠٢ .. ولم يكن سايكس من ←

أردت ذلك. لكني كنت مسرورة جدا لأنني سرت عبر الصحراء وكانت رحلة مدهشة وتجربة مفيدة لبعثة مستقبلية. وهكذا كنت أؤسس لصداقات مع كثير من الناس المهمين العالمين بأمور الصحراء.

الأحد ١٩ شباط ١٩٠٥ صلخد - سالي

كان صباح اليوم صافيا مشرقا، لكن برده قارس. تأخر الرجل الذي وعدنا بحمل مؤونة من الذرة، إذ لا يوجد منه في طريقنا، وهو لم يحضر على الأرجح بسبب البرد القارس، فتكفل حبيب الطيب بحمله كله. ودعت ملحم أفندي والقائمقام يوسف أفندي، وصحبني ضابط درزي كلفه القائمقام بمرافقتي، يدعى يوسف أيضا.

لم يكن أمامي في هذا البرد القارس سوى أن احتمي منه بارتداء ملابس ثقيلة، كنزة صوف وجاكيت ومعطف من الفرو.

صانعي القرار إلا أنه كان مؤثراً جداً بسبب شهرته كخبير في شؤون الشرق الأوسط وحظوته لدى أصحاب السلطة. و مع زميله الفرنسي جورج بيكو صاغ سايكس معاهدة سايكس بيكو الشهيرة عام ١٩١٦. توفي في فرنسا في ١٦ / ٢ / ١٩١٩ متأثرا بالحمى الاسبانية عن ٣٩ عاما بعد عدة أيام من مغادرته سوريا .

المراجع : الموقع الإلكتروني : www.wikipedia.com Wikipedia، the free Encyclopedia: ، Daily Mail ، 28th February 2007

سرنا قرب عرمان لنتجنب الثلج، وغصنا في الوحل والحجارة. وعرمان قرية كبيرة، فيها كثير من الآثار. قابلت فيها رجلا مسيحيا من آل الريس، رحل أولاده الثلاثة إلى أميريكا وهم جميعاً ناجحون في أعمالهم. أرسل له أحدهم ثلاثين جنيها. وبعد مسير ساعتين بدأنا نخوض في الثلج.

إن الشياطين وحدها تستطيع السير في هذه الأماكن، فبالقرب من أبو زريق والتي رسمت خطأ في الخريطة على تخوم وادي راجل سقطت البغال في الجروف الثلجية وصهلت الخيل وشبت عاليا، ولو لم أكن أثبت قدمي بركابي السرج المتينين لسقطت مرات عديدة من على ظهر جوادي. ازداد عصف الريح وبدأ البرَد يتساقط حتى أصبحنا أخيرا وسط عالم أبيض بالكامل. وخلال الساعة الأخيرة من الرحلة ترجلت وقدت جوادي، لأنه كان يغوص في الثلج العميق مع كل خطوة يخطوها، وقد أشعرني ذلك بدفء أكثر. وصلنا سالي، مقصدنا، وكان البرَد يتساقط غزيرا في ذلك الحين. كانت القرية كتلة من الثلج وبركة من الوحل نصف المتجمد. لم يكن هناك أي بقعة جافة كي أنصب مخيمي، لذلك صعدت الى منزل الشيخ محمد بن نصار وأبرزت رسالة ملحم إلى ابن أخيه نجيب، فقادني إلى المقعد الذي هو غرفة الاستقبال[٤١]، وأشعل نارا في مدفأة معدنية و صنع لي الشاي. كان المقعد غرفة

واسعة ذات نوافذ متقاربة ولكنها من غير زجاج . كانت الغرفة مفروشة بالبسط وعلى الجوانب ديوانية ليست عالية الارتفاع. وفرش السجاد من أجلي. ثم جاء أبناء عمومة آخرون أحدهم اسمه فايز، وفايز هذا مع نجيب رافقا أوبنهايم(٤٢) في رحلته هنا، وكانا في غاية الشوق لرؤية كتابه الذي كان في حوزتي وكنت سعيدة بتقديمه لهما. وبينما كنت أشرب الشاي وأتبادل الحديث مع أولاد الأخوة - الذين كانوا شباباً أذكياء مبهجين- دخل الشيخ(٤٣)، وهو

٤١- مقعد آل نصار: بناه محمد نصار على أنقاض بناء قديم قد يكون الكنيسة البيزنطية التي بنيت عام ٥٤٧ باسم القديس الياس. دمره الفرنسيون أكثر من مرة خلال الثورة السورية الكبرى " ١٩٢٥ - ١٩٢٧ " بسبب عداء صاحبه آنذاك سليمان نصار للحاكم الفرنسي كاربييه و للانتداب الفرنسي. أهمل منذ ذلك الحين ولا زالت أطلاله باقية حتى الآن.

المراجع : الآثار في جبل حوران ، علي ابوعساف الطبعة الأولى ،مطبعة ألف باء الأديب ١٩٩٧ ، ص ١٥٨ .حديث مع الشيخ عقاب نصار - سالة ٢ / ٨ / ٢٠٠٧)

٤٢- البارون ماكس فون أوبنهايم : (١٨٦٠ - ١٩٤٢) مستشرق و أنثروبولوجي و أثري ألماني بدأ رحلاته الى الشرق عام ١٨٨٣ . زار الجبل و المنطقة عام ١٨٩٣ . أصدر دراسة بجزأين تحت عنوان : من البحر المتوسط الى الخليج ؛ تناول الجزء الأول سوريا و لبنان قدم فيها أبحاثا مهمة تاريخية و سياسية عن الأقليات الدينية و المذهبية و العرقية ، و كذلك عن القبائل و العشائر في هذه المنطقة . أما الجزء الثاني فتناول العراق و الجزيرة العربية الى مسقط . جزئت هاتان الدراستان و نشرت في عدة كتب صدر منها مترجما الى العربية: البدو، الدروز وتل حلف.

المراجع: الموقع الألكتروني القنطرة www.qantara.com. الدروز، مرجع سابق ص٧.

٤٣- الشيخ محمد نصار شيخ قرية سالي. هاجر الى سالة على أثر الأحداث الدامية في لبنان عام ١٨٦٠ بعد أن شارك في معركة زحلة في ١٨ حزيران ١٨٦٠. أقام علاقة وطيدة ←

رجل مسن، طويل القامة، فرحب بي أجمل ترحيب. وأحاطني الجميع باهتمام خاص لأني أول امرأة أوروبية تمر بهذه المناطق.

أصر الشيخ محمد على بقائي في ضيافته هذه الليلة، فوافقت بكل سرور، فحتى عاشق الخيام لن يجد في هذه الليلة أي متعة للنوم فيها.

جاء كل أفراد العائلة (الرجال) واحدهم إثر الآخر، كان للشيخ ستة أولاد والكثير من أبناء الإخوة الذين لم أر مثل عددهم من قبل.

← مع ابراهيم الأطرش وناصره على طرد الحمدان من السويداء. عين مديرا لناحية سالي ضمن قضاء جبل حوران عام ١٨٨١ ثم ١٨٨٢ ثم مديرا لناحية بوسان بعد إلغاء ناحية سالي عام ١٨٩٥-١٨٩٦ . أثناء حملة طاهر باشا على الجبل عام ١٨٩٧ غادر مع حوالي ألف درزي الى الصفا و أقام عند أصدقائه بدو الغياث لتجنب الصدام مع الحكومة ، و مع ذلك فقد نفي إلى الأناضول مع المئات من أبناء الجبل و بقي أسيرا حتى عام ١٩٠٠. من أوائل من أدخل التعليم إلى الجبل فقد استقدم معلما من دمشق عام ١٨٩٢ (أحمد توفيق أفندي) و كانت سالة إحدى خمس قرى في الجبل فيها مدرسة ابتدائية (مكتب ابتدائي) . أرسل اثنين من أولاده، سالم و سليمان، للدراسة في مدرسة العشائر بالآستانة. توفي عام ١٣٢٢ هجرية .(نحو عام ١٩٠٥ م) أي ربما توفي في نفس السنة التي مرت بها بل إلى الجبل.

المراجع: مقابلة شخصية مع السيد عقاب سليمان محمد نصار – سالي في ٢٠٠٧/٨/٢ . الدروز، مرجع سابق ص١٢٢ و ١٣٢ . تاريخ حوران الاجتماعي ، مرجع سابق ص٧١-٧٣ و ٢١٩.

جلست على الديوانية، وجلس جميع الدروز الموجودين على شكل حلقة حولي، وأجبت عن جميع تساؤلاتهم حول أماكن في بقاع مختلفة من العالم، وخصوصا حول اليابان المنشغلة بالحرب وكانوا مشغولين بإخبارها. وشرحت لهم عن أسلوب حياتنا. لقد سمعوا عن تشامبرلين[٤٤] وسألوا بصورة خاصة عن اللورد سالزبوري[٤٥] وحزنوا كثيرا لسماع خبر موته. الولدان الكبيران للشيخ محمد درسا في اسطنبول، وكان أحدهما موظفا حكوميا في دمشق، لكنه اختلف مع رئيسه وغادر عمله في نوبة غضب[٤٦].

كان الشيخ سجينا في الأناضول لثلاث سنوات بعد الحرب، لذلك فهم خبيرون إلى حد ما بشؤون العالم، وكما هي العادة عند الدروز فهم دائما على معرفة جيدة بمجريات الأمور في كل بقاع الأرض.

٤٤- جوزيف تشامبرلين: (١٨٣٦ – ١٩١٤)رجل أعمال و سياسي بريطاني. شغل منصب وزير المستعمرات البريطاني(١٨٩٥ – ١٩٠٣). برز دوره في حرب البوير١٩٠١– ١٩٠٢ المرجع: الموقع الإلكتروني:Wikipedia www.wikipedia.com، the free Encyclopedia :

٤٥- اللورد روبرت غاسكوين سيسل ، ماركيز سالسبوري: (١٨٣٠ – ١٩٠٣) رئيس وزراء بريطانيا ثلاث مرات (١٨٨٥ – ١٨٨٦) و(١٨٨٦ ١٨٩٢) و(١٨٩٥ – ١٩٠٢) المرجع : الموقع الإلكتروني : www.wikipedia.com Wikipedia ، the free Encyclopedia :

٤٦- سليمان محمد نصار: (١٨٨٥ - ١٩٥٥). خريج مدرسة العشائر بالآستانة. من زعماء الثورة السورية الكبرى. شارك في معارك الثورة و أصيب في معركة المسيفرة حيث كسرت يده. له حكاية شهيرة مع كاربييه حاكم الجبل الفرنسي عندما زار سالة ولم يستقبله ←

جاء العشاء على صينية كبيرة فيها صحون من الأرز والدجاج ونوع غريب من طعام الدروز مصنوع من الحليب الحامض والسمن والخضر – نوع من الشوربة – ليست طيبة المذاق. أكلنا أنا وضابطي يوسف أولا، لأننا ضيوف، ثم تقدم الآخرون إلى الطعام. جلسنا بعد الأكل على الديوانية، وشربنا القهوة وتابعنا حديثنا، وخصوصا حول الحرب في روسيا، حتى دقت الساعة التاسعة. وعندئذ أحضرت اللحف المحشوة بالصوف ومدت على ثلاث جهات من الديوانية من أجلي ومن أجل يوسف والشيخ.

اندسست في فراشي، وسرعان ما رحت أغط في نوم عميق.

الإثنين ٢٠ شباط ١٩٠٥ سالة- اسعنا- الشبكي- الشريحي- رامي – أم رواق

استيقظت قبل شروق الشمس بقليل. صار جوالمقعد مملا، فتسللت بمعطفي الصوفي إلى القرية الساكتة المتجمدة لأشاهد شروق الشمس. الشـــكرَ لله، فقد كان الجو جميلاً. عثرنا على نبع

سليمان نصار استقبالا لائقا، فشتمه كاربييه فرد له الشتيمة بأكبر منها، فما كان من كاربييه إلا أن أمر بسجنه و عاقبه بتكسير الحصى أمام دار الحكومة ، و كان آنذاك مديرا لناحية سالة فعزل من منصبه . عين نائبا في البرلمان السوري عن الجبل عام ١٩٣٧ . مدير المعارف في السويداء ١٩٤٢ ، ثم محافظ السويداء عام ١٩٤٧ . توفي عام ١٩٥٥ عن عمر ناهز السبعين عاما.

المرجع : حديث مع الشيخ عقاب نصار – سالة ٢ / ٨ / ٢٠٠٧

قديم مدهش قرب الخان، فوقفت في الثلج أراقب شروق الشمس وأبتهل إلى الله شاكرة له هذا الجو الهادئ الذي يخلو من العواصف والمطر والثلج. كان خدمي نائمين في الخان، هم والحيوانات تحت سقف واحد. أفطرنا عند الشيخ شاياً و(شْراك)[٤٧] وكشكا ودبسا. أما الأخير فمصنوع من عصير العنب، وقد أحببته كثيرا. ركبنا بمرافقة أحد أبناء الإخوة، اسمه فايز، وقد غدا مرافقا لنا، وأصبحنا صديقين. مررنا أولا قرب اسعنا. ومررنا قبل اسعنا بوادي بوسان العميق وفيه مطحنة. كانت اسعنا قرية مزدهرة، رأيت فيها ساكفا فوق أحد الأبواب عليه زخارف ورسوم جميلة - عناقيد عنب ومزهرية. ثم توجهنا إلى الشبكي، وهي قرية مثيرة للدهشة مليئة بالكهوف، كما رأيت عمودا مكسورا. ثم انتقلنا الى الشريحي، حيث تغدينا في الوادي تحتها. وبعد ذلك وصلنا رامي، القرية الواقعة على حافة واد عميق. وقد غصنا في الثلج والماء والجليد أكثر من ساعة ثم غادرنا المنطقة الشتائية وتركناها خلفنا لنسيرعلى الحافة الشرقية لجبل الدروز. في الأسفل تحتنا كان يمتد إلى الأفق البعيد سهل الحرة الواسع. وهوسهل منبسط وأسود لأنه مغطى بالحجارة والصبات البركانية. وإلى الشمال والجنوب قمم بركانية أشبه بجزر في بحر شاسع.

٤٧- شراك ، بتسكين الشين ، خبز الصاج باللهجة البدوية.

مررنا بالقرب من العجيلات المتربعة على قمة عالية، ثم توجهنا إلى أم رواق الكائنة على الحافة الأخيرة من جبل الدروز. هنا نصبنا مخيمنا، كنت أرى من باب خيمتي كل تلك السهول الممتدة نحو الشرق. رشراش، شقيق فايز هو الشيخ هنا، وله ولد لطيف اسمه أحمد(٤٨) ذهبت برفقته إلى المقعد وشربنا الشاي. وأخبرني الشيخ بوجود آثار عديدة في الحرة أما في الحماد فلا يوجد شيء سوى الأعشاب والبدو في الربيع ولا يوجد أي بناء حتى بغداد.

الثلاثاء ٢١ شباط ١٩٠٥ أم رواق – الصفا

انطلقنا عند الثامنة صباحا، أنا وطباخي العتيد ميخائيل وأفضل قائد بغال عرفته، حبيب، وستة دروز: صديقي فايز والشيخ رشراش وابنه أحمد وثلاثة آخرون، أحدهم خطار الذي رافق أوبنهايم، وهو من آل نصار وشاب لطيف للغاية. تركت خيمتي خلفي وأخذت معي بعض البسط وخمس دجاجات وكثيرا من الخبز، إضافة إلى معطف الفرو والكاميرا. نزلنا في المنحدر مسير ساعة، مررنا في البداية بأرض محروثة صاحبها الشيخ رشراش، ثم بأرض بور ترعى فيها قطعان من الماشية للدروز

---

(٤٨) في الحقيقة أحمد هو ابن سليم نصار شقيق رشراش الأكبر، وقد أصبح أحمد شيخا لقريته بعد عمه رشراش.

المرجع: حديث مع السيد مزيد نصار – أم رواق ٦ / ٨ / ٢٠٠٧

يرعاها البدو، ثم عبرنا وادياً ضحلاً حيث يقوم مخيم بدوي صغير وقطعان من الماشية تبحث عن طعامها بين الصخور. كان كل هؤلاء العربان من قبيلة الغياث، وهي إحدى القبائل الفقيرة. إنهم يقضون الشتاء في الصفا، ثم يأتون إلى سفوح الهضاب الدرزية في الصيف، في مقابل السماح لهم بالرعي هناك فإنهم يرعون قطعان الدروز. بعد ساعة من المسير انطلاقاً من هذا الوادي نزلنا في الصفا نفسها. وهي ليست منبسطة تماما، ففيها أراض ناهضة قليلا تحتاج إلى ساعة أو أكثر لعبورها ، وإذا سرت في منخفض من الأرض، يختفي العالم بأكمله من حولك، وسرعان ما تنتصب الصخور أمامك . من المستحيل هنا تقدير المسافات ، لكنك تسلم جدلا أن المسافات طويلة جدا. الأرض كلها مغطاة بطبقة من الحجارة السوداء- من أين جاءت لا أدري؛ وهي ليست كبيرة، ستة إنشات أوبطول قدمين أو قريباً من هذا، وكلها ملساء بلا حواف كحجارة الوديان والشواطئ. وهي تتوضع على تربة صفراء كالرمل لكنها صلبة تنبت فيها العديد من النباتات كالشيح ونباتات مزهرة تشبه البصل. رأيت نباتات إبرة الراعي الصغيرة وأوراق الخزامى. وهناك ممرات ضيقة مهدتها خطوات البشر على مدى مئات الأجيال، وهي ضيقة بحيث لا تكفي سوى شخص واحد للسير عبرها. وسرعان ما يختلج في نفسك شعور غريب عندما

تغادرها وتخرج إلى الأرض الفسيحة المغطاة بالحجارة. الضوء مبهر فوق الحجارة السوداء رغم أن الجو لم يكن حارا، بل باردا. تبعنا وادياً ضحلا يدعى غدير الغرز[٤٩]، وبعد ساعتين صادفنا رجلا حيانا بحرارة لأنه كان معروفا من قبل شيوخي. أخبرنا أن هناك ماء في الغدير على مسافة ليست بعيدة من خيام البدو شمالي القنطرة. وصلنا إلى الماء بعد ساعة من الزمن، والساعة تقارب الواحدة ، وتغدينا هناك، فيما كانت الجمال والماعز تشرب من الغدير. وصلنا إلى القنطرة، التي لم تكن مكانا مميزا على الإطلاق، بل كومة من الحجارة فوق مرتفع من الأرض. لم نر خياما في المكان، فسرنا وسرنا متجهين شمالا في البداية، ثم غربا، حتى وصلنا إلى مكان مرتفع آخر دون أن نرى أي خيام أيضا. وفي بعض هذه الأماكن تجد ممرات منتظمة خالية من الحجارة باتجاه أماكن مرتفعة، ذلك إن البدو في أوقات الغزو يزحفون عبرها على بطونهم و يختبئون خلف كومات الحجارة يراقبون عدوهم الغازي. يكتسح الغزو الصفا خلال الصيف؛ فالغارات تتكرر في أماكن كثيرة وخصوصا تلك التي يتوفر فيها الماء. أخيرا وقبل ساعة من الغروب لمح خطار دخان خيام على مسافة بعيدة

٤٩- وادي الغرز : أحد الواديين الكبيرين اللذين يمتدان من الجبل شرقا و يصبان في الرحبة . الوادي الآخر هو وادي الشام

إلى الشمال الغربي. كان علينا أن نعود قليلا إلى الخلف، وسرنا على شكل نصف دائرة، حيث وصلنا إلى هناك قبل أن يدركنا الظلام بعد تسع ساعات من المسير. كانت الجمال و الماعز عائدة من المرعى إلى البيوت بعد يوم رعي منهك . الخيام صغيرة بائسة كئيبة في هذا المكان المقفر – وأكاد أجزم أنه بمئتي جنيه يمكنك شراء كل ما يملكه الغياث من أمتعة ، هذا إن دفعت سعرا جيدا. وهم لا يأكلون شيئا سوى الخبز، ويقضون أوقاتهم متجولين بين الصخور خوفا على حياتهم، لأن غزوات القبائل الكبيرة تجتاح الصفا من الشمال إلى الجنوب وتغير بطريقها على الغياث المساكين. انفصلنا قسمين: ذهبت أنا ورشراش وخدمي إلى خيمة الشيخ ويدعى عقلا، فاستقبلنا ولداه محمد وحمدان أحسن استقبال. وقام محمد بالواجب، فأشعل نارا من الأشواك وروث الجمال. وكان الدخان بغيضا، لاذعا. ثم صنع القهوة. كان لمحمد وجه نحيف غامق وأسنان لامعة. وهويرتدي ثيابا من القطن الأبيض، وكان غناؤه جميلا وهو يضرب بالمهباج. كان عشاؤنا من الدبس والشْراك، بعدها لففت نفسي ببساطين وجعلت السرج مخدتي ونمت. وأيقظني رشراش بأحاديثه المتواصلة. تكلموا لساعات، ثم صحوت ثانية عند منتصف الليل فوجدت الجميع نياما حول الموقد البارد. كان القمر يسطع بأشعته والخيل واقفة بسلام قرب عمود

الخيمة، وفي الخلف كان أحد الجمال يجتر بين الصخور .كانت البراغيث لا تطاق، لكني نمت حتى مطلع الفجر، رغم أن الجوكان باردا قليلا، ولكن لطيفا.

الأربعاء ٢٢ شباط ١٩٠٥ الصفا – (الرحبة – قلعة البيضاء)

الفجر صاف و جميل . والجو نظيف و بارد كحمام منعش. غادرنا عند السابعة. أعد لي ميخائيل الشاي وسلق بيضة. صحبنا أحد العربان على جمله ،و اسمه عواد ليدلنا على الطريق. سرنا ساعتين فوق طبقة من الحجارة حتى وصلنا إلى سلسلة هضاب منخفضة إلى الجنوب من تلال الصفا. عبرناها وطفنا حول الصبات البركانية للصفا في أرض صفراء منبسطة لا ينبت فيها أي عشب. وبين الصبات البركانية انتصبت هنا وهناك أشجار البطم العارية الرمادية .كانت الصبات البركانية تمتد على يسارنا كبحر أسود مرعب. اكتشفت أيضا أن الخندق الذي كنا نسير فيه ليس إلا طريقا قديما قدم التاريخ، وكان مميزاً بفواصل حددتها كومات من الحجارة بنيت على جانبيه. يتحدث البدو دائماًعن حجر ضخم هنا يسمى العبلة، وعندما وصلنا إليه وقفنا لمشاهدته. وظهر عليه ثلم أحدثه حبل دلو فهو حجر بئر على الأغلب. مررنا بعد ذلك على صخرة ضخمة سوداء عليها نقوش بلغات عدة، النبطية واليونانية والكوفية ونقش آخر لم أعرفه، يشبه الخط اليمني القديم،

أو السبئي. قال عنه موريه إنه خط صفوي. ويبدو أن كل شخص مر من هنا قد عرّف بنفسه طبقا للمنزلة التي كان يتمتع بها. فقد شاهدنا أوساما لبعض القبائل البدوية ميزت منها وسم الصخور (خط عامودي ودائرة في الأعلى أو خط عامودي ودائرة في الأعلى وواحدة في الأسفل). بعد أربع ساعات وصلنا إلى التخوم الشرقية للصفا وأصبح سهل الرحبة الأصفر أمامنا. السراب هنا مدهش، أما الطين الأصفرفكان يقودنا إلى بحر ضبابي، وبعيدا بدت التلال البركانية كأنها جزر انعكس طيفها على الماء. قابلنا أعرابي يركب المردوف على جمل هو وزوجته. كانت هناك أبراج صغيرة بنيت بطريقة بدائية غير متقنة توزعت بكثرة على أطراف الصبة البركانية كأنها أبراج مراقبة، وقد بنيت حجارتها بعضها فوق بعض دون أي إتقان. ثم شاهدنا مزارا أبيض ولاح لنا البرج الرمادي لقلعة البيضاء وهي المكان الذي جئت هنا من أجله. بعد حوالي خمس ساعات وصلنا المزار(٥٠) وهو مقدس عند الدروز والإسلام السنة على حد سواء، وله عيد خاص، كان موعده قبل عشرة أيام، ولكن لم يأت أحد إليه هذا العام كما قال رشراش. غالبا

٥٠- مزار الشيخ سراقة: يقع في موقع الرحبة شرق الجبل، قرب خربة البيضاء. مزار قديم تعتقد فيه عرب البداوة بأنه يحمي الزرع والطرش من كل تعد (جبل الدروز، مرجع سابق ص ٢١٧). يزوره أيضا الدروز و هو على بعد ١٠٥ كم من مدينة السويداء.

ما يزرع الغياث بعض الذرة في سهول الرحبة، لكنهم هذا العام لم يفعلواذلك بسبب قلة الأمطار .وجدت في المزار حجارة منحوتة نقلت إليه من قلعة البيضاء وأعتقد أن هذا حدث منذ فترة ليست بعيدة. إنه بناء حوراني بسقف مؤلف من بلاطات حجرية طويلة (ربد) صفت بعضها إلى جانب بعض. وهناك غدير قرب الصخور البركانيه في الخربة – والبدو دائما يسمون القلعة بالخربة. كانت الخربة على بعد مئة أو مئتي متر داخل البحر البركاني مطلة على سهل الرحبة، ويفترض أنها كانت آخر قاعدة عسكرية للرومان، أو ربما قبل الرومان. وبدا السور الخارجي جميلاً جدا و متقن البناء مع أبراج دائريةعلى زواياه، وفي منتصف الجدران الجنوبية والغربية والشمالية (**الصورة٢٢**). ولاحظت بين طبقتي الجدار مايبدو كأنه نوع من الملاط. أما البوابة الرئيسية في الجانب الشرقي فكانت جوانبها منحوتة ومزينة بطريقة رائعة؛ كرمة وحيوانات ورسومات أخرى وقد صورت جميع الأجزاء المكسورة الموجودة في المكان. والقلعة نفسها أعيد بناء جزء منها في فترات لاحقة من مواد سبق استعمالها في البناء ولكنها بنيت بصورة سيئة إذ يمكننا رؤية بعض الأفاريز التي بنيت في الجدران في غير مكانها. يبدو أنه كان هناك مجموعة من البيوت على محيط السور. وعلى بعد مئة متر إلى الشمال الشرقي



الصورة ٢٢: خربة البيضا . مركز روماني حدودي - جدران تظهر برجا دائريا من طابقين ، و قلعة . العصر الروماني مع تأثيرات فارسية .

٢ شباط ١٩٠٥

عدسة: غيرترود بل

مبنى كبير ذهبت لرؤيته. طريقة بنائه بدائية، كانت جدرانه من الصخور البركانية وليس من الحجارة الرمادية لقلعة البيضاء، ولا يوجد أي نحت أو تزيين فيها. هناك الكثير من هذه الصخور على طول حافة الصبة البركانية إلى الشمال. بقيت في القلعة ساعتين من الزمن. صورت خلالهما المكان ثم تغدينا، وعدنا أدراجنا الى مخيم الغياث واستغرقت رحلتنا خمس ساعات إلا ربعا. وصلنا بعد الغروب، ولكن قبل حلول الظلام. هبت رياح قوية وأصبح الجو غائما. وتبدل شكل الخيمة ، فقد أصبح جدارها الخلفي مقدمة لها، وهذا ليس غريباً فأي من الجدارين يمكن تغييره بسهولة ليناسب المقدمة أو الخلفية.

قدموا لناهذا المساء شراكاً فقط، وكان عندي الشاي والبسكويت، وتقاسمنا جميعنا دجاجة ونصف. حاولت النوم لكن البراغيث اللعينة أقضت مضجعي، فلم أنم إلا بعد منتصف الليل، وكانت الليلة مقمرة جميلة. أثار حصاني ضجة وكان علي أن أرى ما أثاره. كانت خيول الدروز واقفة بسلام ، تنظر إلى الخيمة . اشتد البرد قبل الفجر، و شعرت بعوارض الرشح قليلا ، و قد يكون السبب هو الحرارة العالية التي تولدها النار المتقدة حينما يصنعون القهوة فتشعر عندها كأنك تشوى بتلك النار . كان هناك أكثر من مراح في هذا الوادي الذي نحن فيه ، فقد أزيلت الحجارة من أجل

استخدامها في بناء البيوت و إناخة الجمال . كان هناك أبراج قديمة لقبيلة العنْزة التي كانت تخيم هنا قبل مجيء الدروز إلى الجبل . ولكنك لا تراهم الآن هنا أبد إلا إذا جاؤوا غزاة مغيرين .

الخميس ٢٣ شباط ١٩٠٥ الصفا – أم رواق

استيقظنا بعد الفجر، اليوم صاف وجميل مع ريح باردة جدا. سرنا طيلة اليوم، وأنا أرتدي كنزة تحت معطفي. أعطيت عقلا وعوادا ليرة عثمانية، وبدا عليهما السرور والغبطة. غادرنا عند الثامنة و تبعنا الغدير الذي قادنا إلى التلال التي جئنا منها. البدو في كل مكان من الطريق. كان الدروز يتوقفون في كل مكان يوجد فيه ماء ليشربوا ، فهم دائما عطاش . وفي الوادي على سفح الهضبة توقفت أنا و خدمي لنتغدى ، وقد تبعني فايز ، لكن الآخرين ذهبوا لزيارة بعض البدو. كانت الساعة الثانية عشرة و النصف . كنا على بعد ساعتين و نصف من الخيام ، و ست ساعات و نصف منذ بداية الرحلة ، في مقابل تسع ساعات قضيناها في اليوم الأول ؛ و صلت خيمتي في الرابعة فاستحممت و غيرت كل ملابسي ، لكني لم أستطع التخلص من كل البراغيث . كان ذلك أمتع حمام في حياتي فقد شعرت في الأيام الماضية بأن جسمي لم يسبق له أن اتسخ بهذا الشكل . كانت الرحلة ممتعة للغاية، وعلى الرغم من أنها متعبة ، فهي تستحق كل هذا العناء . لا أدري إن كنت سأزور الصفا مرة

ثانية في حياتي . رفضت دعوة حميمية إلى العشاء مع أصدقائي الدروز ،فقد اشتقت إلى وجبة مسيحية. أعطيت كل واحد من الشيوخ ثلاث نابليونات(٥١)، وكل واحد من الشباب مجيديتين فشعر الجميع بالسرور. بعد العشاء ذهبت إلى منزل الشيخ، فشربنا القهوة وتحدثنا طويلا، وقد أكدوا بأنهم يعدوني واحدة من أفراد العائلة. كانوا بغاية اللطف في كل الأوقات التي قضيناها معا وأنا أكن لهم كل الاحترام. ليباركهم الله.

الجمعة ٢٤ شباط ١٩٠٥ أم رواق – الهيت – البثينة

يا له من صباح شديد البرودة. لقد تجمدت إسفنجتي وتحولت إلى كتلة صلبة ولم يعد باستطاعتي استخدامها. شعرت إن درجة الحرارة ليست أقل من عشر درجات تحت الصفر، وزاد الأمر سوءا الرياح الجنوبية اللاذعة. كل العالم من حولنا متجمد، ورغم أن الشمس كانت تسطع بنورها الوهاج فإنها لم تستطع إذابة الجليد قبل منتصف النهار. غادرنا البلدة في الثامنة والنصف، ومررنا بطربا، فتيما ثم شقا. كان واضع الخريطة التي بحوزتي قد تصرف على راحته عندما رسم الحد الشرقي لجبل الدروز. يا لها من بلاد مبهجة ومفتوحة على الأفق ،كان معظم السهول أسفل شقا

٥١- النابليون: هي عملة فرنسية ذهبية تساوي عشرين فرنكا. سكت أول مرة عام ١٨٠٣ ابان حكم نابليون بونابرت و ظلت تستخدم حتى مطلع القرن العشرين.

المرجع: www.wikipedia.com Wikipedia، the free encyclopedia

محروثاً. وبرز مشهد رائع آخر لجبل الشيخ بجليده النقي البراق الذي يغطيه من كل الجهات. تغدينا في شقا، وهي بلدة جميلة، صحبني فيها شاب جذاب، عمه شيخ قنوات، فطفنا في البلدة التي تضم أوابد كثيرة أهمها معبدين وكنيسة. (**الصورة ٢٣**). أرسلت البغال أمامي و توجهت أنا إلى الهيت، التي تحوي منزلا جميلا، أعتقد أنه للشيخ. لهذا المنزل بوابة جميلة مغطاة بالزخارف و في الداخل فناء يحوي قناطر وهو مطل على الجبال من جهة وعلى اللجاة من جهة أخرى. ويوجد في الهيت عدة منازل جيدة البناء كهذا البناء. كانت الهيات أمامنا على تلة، وإلى الشرق منها البثينة، منتصبة على حافة السهل حيث وجدت مخيمي قد انتصب هناك. كانت خيمتي دافئة حتى غروب الشمس، ورغم أن الرشح و الصداع قد تملكاني، فقد جلست داخل الخيمة ورحت أكتب. رغم أن ضجيج النسوة والأطفال في الخارج قد أزعجني كثيراً.

السبت ٢٥ شباط ١٩٠٥ البثينة – الهيات – لاهثة – براق

تجمد اليوم الجدول الجاري قرب خيمتي ، وكانت الرياح الشرقية القارسة البرودة تزيد الأمر سوءا. لكن الرشح الذي لازمني أمس خفت وطأته قليلا، فركبت الى الهيات. ليس هناك شيء يذكر في البثينة سوى بعض البيوت الجيدة بفناء يتوسطها، أما الهيات فتحوي كليبة رائعة ومنزلا جميلاً من أفضل ما شاهدت في جبل الدروز.



الصورة ٢٣: البازيليكا في شقا . الواجهة الغربية . العصر الروماني القرن الثاني – الثالث الميلادي.

٢٤ شباط ١٩٠٥

عدسة: غيرترود بل

مبنياً حول فناء، كان طابقه الأسفل مؤلفاً من إسطبلات بقناطر وفي الطابق العلوي غرف معيشة تطل على شرفة حجرية (الصورة ٢٤). إنها دار شيخ البلد. وهناك أيضا قصر في البلدة. نزلنا إلى اللجاة وتوقفنا في لاهثة فشاهدنا خيمة الغداء للفريق الاسباني، الذي توقف أفراده عشرة أيام في طبريا بسبب الوحل في الطريق. سرت في السهل عبر طريق سلكته قبل خمس سنوات، وغادرت الأراضي الدرزية نحو الساعة الرابعة بعد الظهر. وقبل أن نصل براق بقليل مر بنا رجلان من جبل الدروز معهما بغلان محملان قادمين من دمشق الى الجبل فحيّيناهما بحرارة. وقلت لهما:

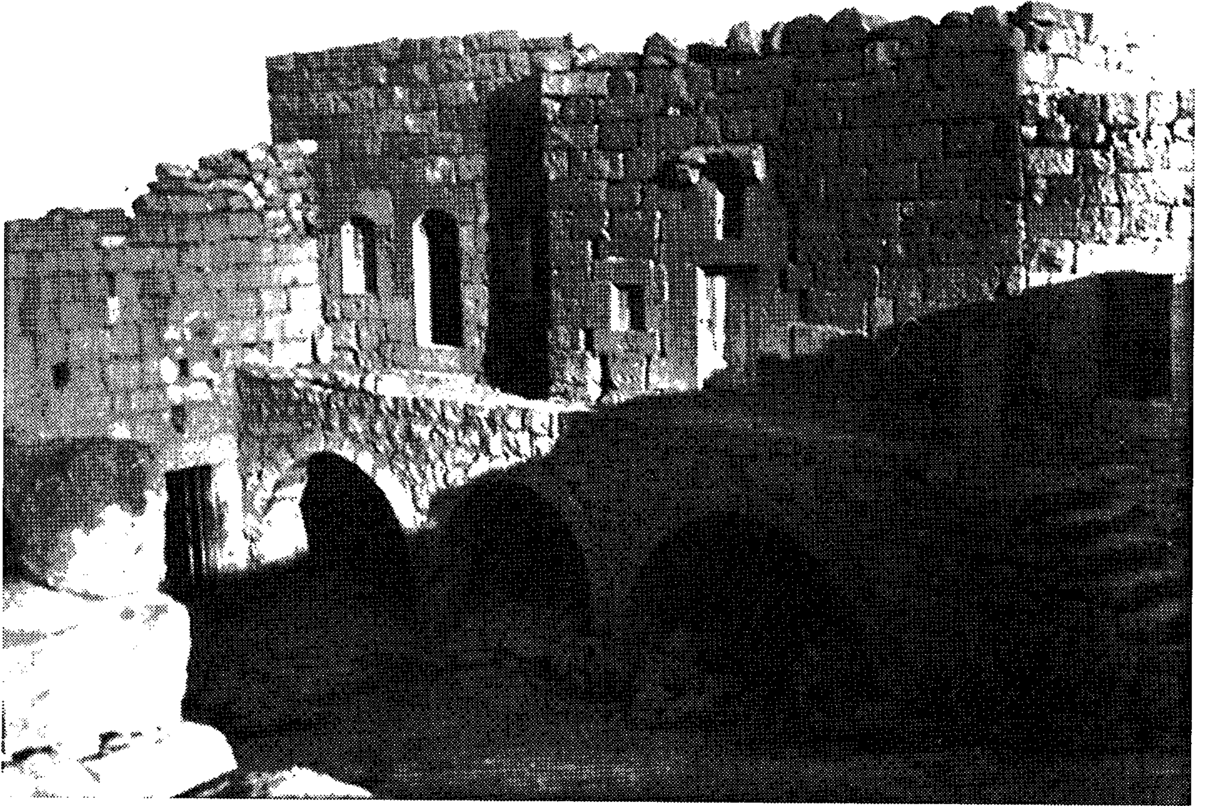
– " هل أنتم ذاهبون إلى الجبل" ؟

– " بعون الله ، الله يحميك"

– " لقد جئت من هناك . بلغوا الجبل سلامي"

– " الله يسلمك ، مع السلامة"

خيمت في براق لكني لم أجد ماء لأنهم لم يحصلوا عليه هذا العام لقلة الأمطار. كان علي أن أرسل البغال مسافة ربع ساعة كي تشرب. وقرية براق سكانها شراكسة. جاء إلى خيمتي أحد الأتراك الذي رآني في منزل نسيب الأطرش ،وهو شخص جذاب، اسمه حسن آغا، وقد سر كثيرا بالحديث عن رحلتي إلى الصفا.



الصورة ٢٤: الهيات ،الكليبة . منزل الشيخ بطابقين و فناء . ٥٧٨ م .

عدسة: غيرترود بل

ملاحظات إضافية عن جبل الدروز

في بداية الربيع لا يمكنك أن تجد لحم الغنم، كل الأغنام تكون في السهل ترعى. يمكنك العثور على الدجاج، ولحمه جيد. ويصعب عليك أحياناً أن تجد البيض. أما الماء فطعمه دائماً سيئ. ويندر أن تجد الذرة للخيل. ولكني وجدته في أم الرمان، ولكنه غير موجود في صلخد، كان علي أن أرسل في طلبه إلى جنوب شرقي البلدة لمسافة ساعتين أو ثلاث حيث قرية الشيخ مصطفى الأطرش(٥٢)، امتان. فقد وجدت هناك ما يكفي لبقية الرحلة، ولكن كان علي أن أحملها معي وكان بإمكاني أيضا أن أحصل عليها في السويداء.

إن الدروز والبدو على خلاف دائم، ما عدا قبيلتي الغياث والجبولي. ويندر أن تجد أحد هؤلاء مرافقا أو حارسا لك، إلا إذا كنت مع قوافل الملح الكبيرة. ومن ناحية أخرى فإن الغياث على عداء مع الحكومة بسبب سرقتهم لبريد بغداد (الدروز اتهموا أيضا بالاشتراك في الجريمة)، غير أني برفقة الدروز استطعت إن أذهب

٥٢- مصطفى النجم الأطرش: شيخ قرية امتان: أشهر رجالات الجبل في نهاية القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين. كان لقبه " أبو وجه أخضر " لانتصاره في جميع غزواته التي كان يخوضها ضد أعدائه. نفي مع زعماء الجبل عام ١٩٨٦ إلى بلاد الأناضول. اشتهر في الحرب التي دارت بين أهل الجبل وعرب المعجل ١٩٠٥ – ١٩٠٦ . توفي عام ١٩٢٤ .

بسلام إلى الصفا. الحالة في الجبل أفضل مما كانت عليه قبل خمس سنوات، ويبدو الوضع الآن أكثر أمنا. فهناك فقط نحو ٢٠٠ عسكري تركي، والباقي من الدروز تحت أمرة القائمقام. إنهم يحبون الانضمام إلى القوة التركية لأنهم يحصلون على أجر جيد ولباس رسمي، وربما من أجل الوجاهة. ولكن لا يعتمد عليهم أبدا في حال الحرب مع الحكومة. يبني الدروز المطاحن البخارية، كما هي الحال في صلخد، وفي مناطق أخرى. وهي مثال للمهنة المفيدة المسالمة.

أبو طلال هو الشيخ الأكثر أهمية في شهبا الآن. والأطرش في السويداء غني جدا؛ يجمع نحو ٥٠٠٠ جنيه كل عام. أما نسيب الأطرش فهو ليس بهذا الغنى، فدخله لا يزيد على ١٠٠٠ جنيه في العام، كما قال لي فايز نصار. إن كره الأتراك للانكليز ما زال كبيرا، لكنهم بحدود معينة يسمحون بدخول السياح، خصوصا إن لم يكونوا من الانكليز. والدروز لا يتكلمون ضد الأتراك كما يفعل الأتراك أنفسهم – تحدث يوسف بك عن الحاجة إلى الإصلاح، لكني لم أسايره في الحديث. والدروز يحبون الاستقلال وتقرير مصيرهم كلما أتيحت لهم فرص لذلك. وهم يذهبون حيثما شاؤوا دون استشارة الأتراك، وخاصة إذا كان الأمر يخص علاقتهم مع البدو، فهم يقطعون خطوط البرق ويتابعون المسير.

ملحق صور وخرائط



غيرترود بل في الحادية و الأربعين أمام خيمتها خلال كشف أثري في بابل ١٩٠٩.



غيرترود بل



الشيخ يوسف حسن الهجري (محفوظات : حسن الهجري – قنوات)



لورنس العرب باللباس العربي



جوزيف تشمبرلين ، وزير المستعمرات البريطاني (١٨٩٥ – ١٩٠٣)



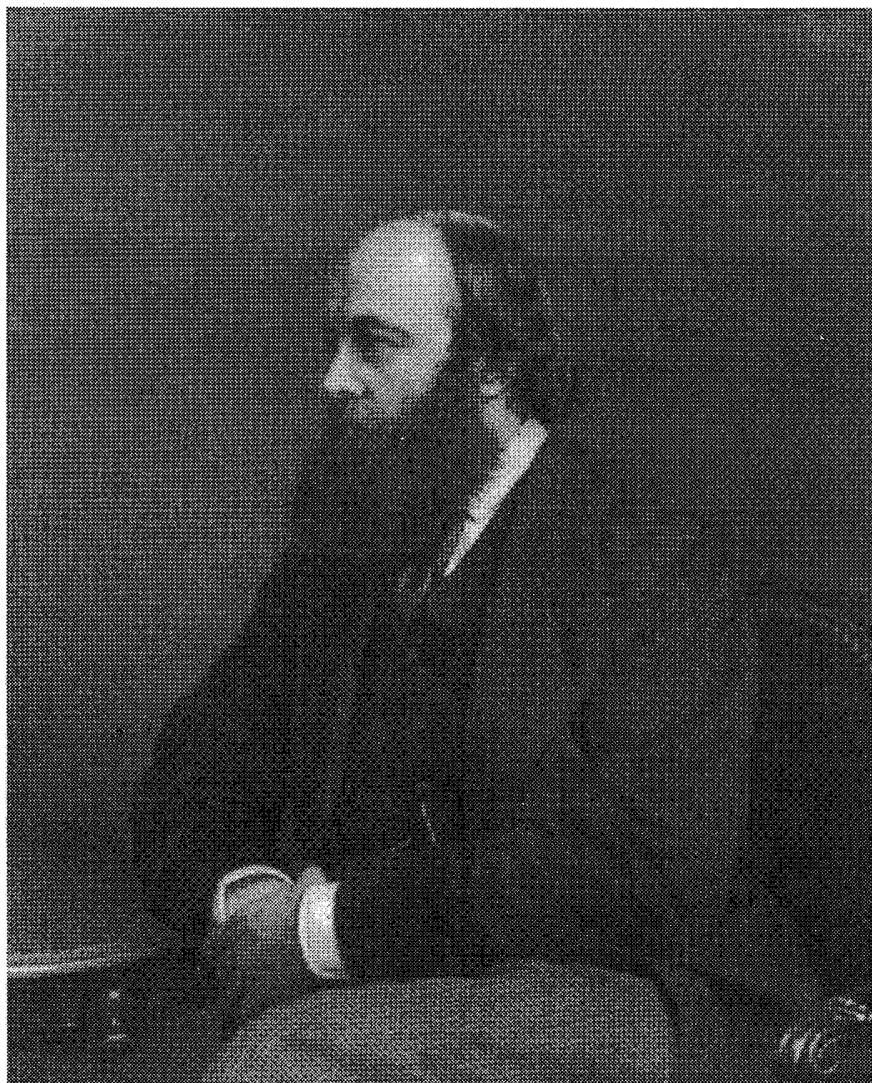
الشيخ محمد نصار عام ١٨٩٣ (المصدر : كتاب : الدروز ، أوبنهايم)



الشيخ سليمان محمد نصار (محفوظات الشيخ عقاب نصار – سالي)



السياسي البريطاني مارك سايكس(المصدر: Daily Mail)



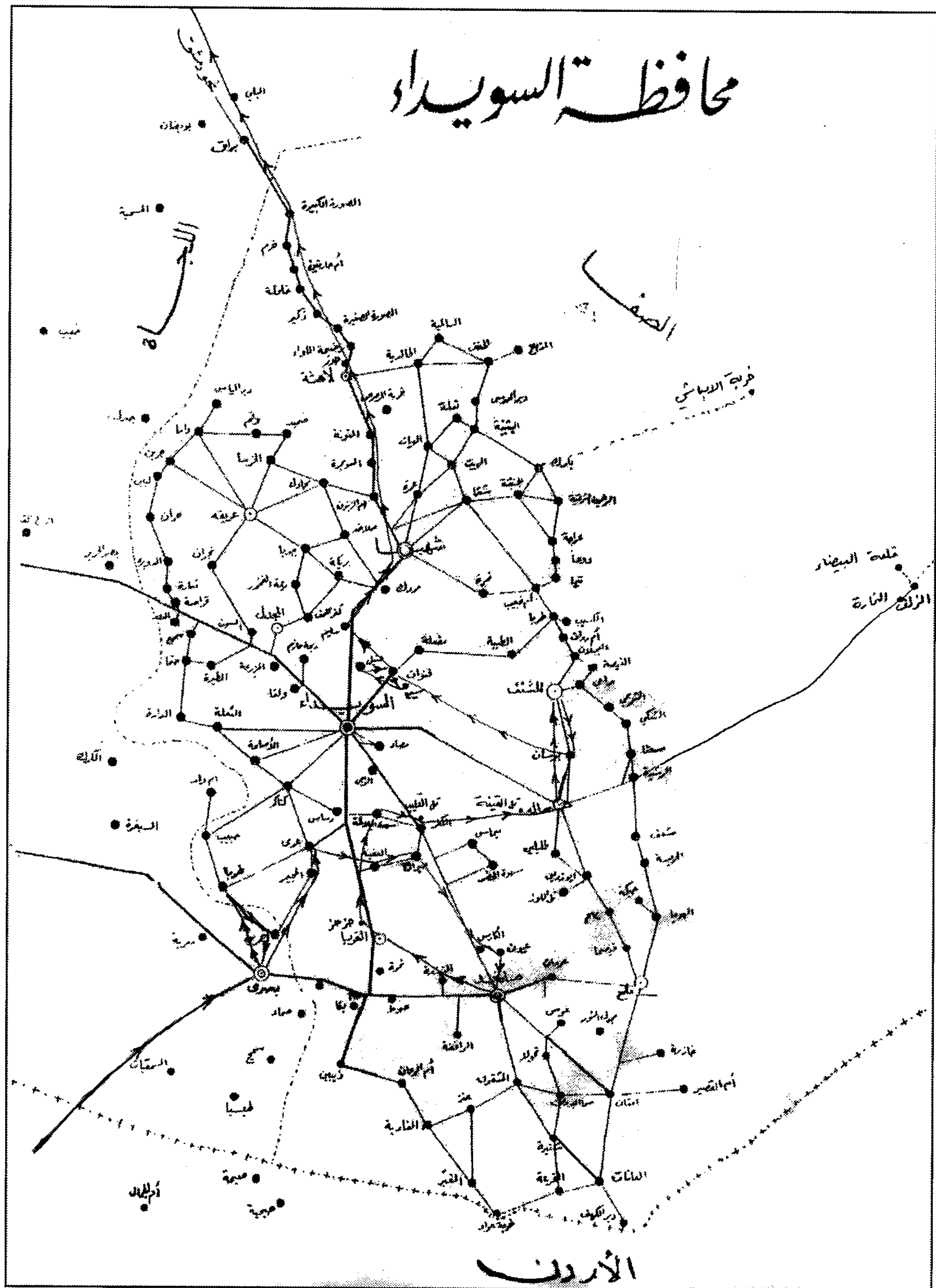
الماركيز سالزبوري رئيس وزراء بريطانية ثلاث مرات بين ١٨٨٥ و ١٩٠٢



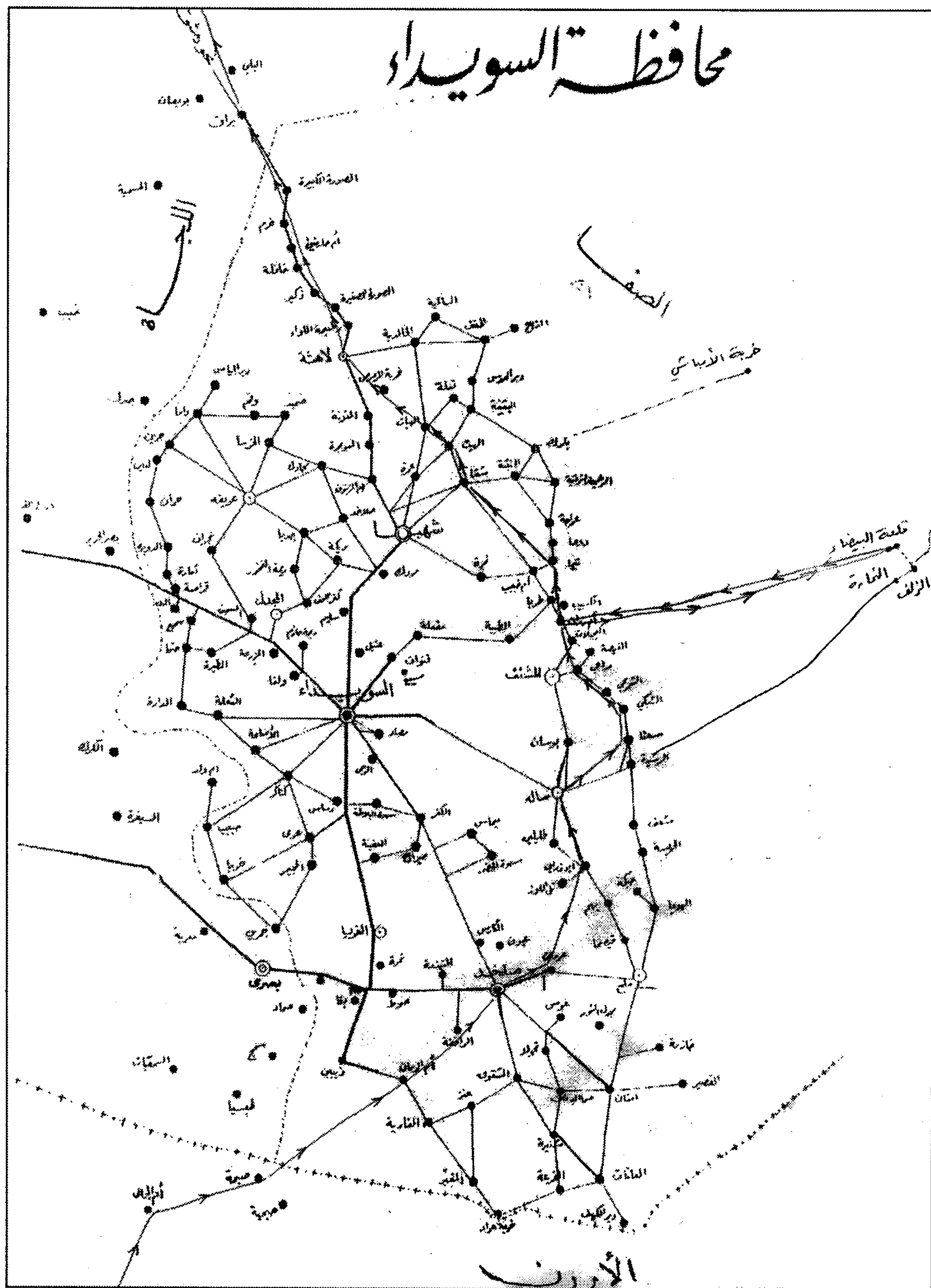
سلمان حمد الأطرش (دبابة الجبل)   محفوظات سلمان سالم الأطرش



مصطفى النجم الأطرش، شيخ قرية امتان (المصدر: استوديو الجبل، السويداء)



خط سير الرحالة في رحلتها الأولى في أيار ١٩٠٠



خط سير رحلة الرحالة الثانية في شباط ١٩٠٥

فهرس الأماكن

فهرس الأسماء

المراجع

الكتب

١- تاريخ لواء حوران الاجتماعي، فندي أبو فخر، الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٩

٢- جبل الدروز، حنا أبي راشد، الطبعة الثانية، مكتبة الفكر العربي، بيروت ١٩٦١

٣- أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ، الطبعة الأولى، دار طلاس- دمشق ٢٠٠٧

٤- جبل العرب صفحات من تاريخ الموحدين الدروز، حسن أمين البعيني، الطبعة الأولى ، دار النهار- بيروت ١٩٨٥ .

٥- العامية والانتفاضات الفلاحية في جبل حوران، عبد الله حنا، الطبعة الأولى، دار الأهالي- دمشق ١٩٩٠ .

٦- انتفاضات جبل الدروز ، بيرجيت شبلر، الطبعة الأولى، دار النهار- بيروت ٢٠٠٤ .

٧- سورية الجنوبية - حوران ١ ، مجموعة من الباحثين باشراف ج. م . دنتزر الطبعة الأولى، دار الأهالي- دمشق ١٩٨٨ .

٨- معجم المواقع الأثرية في سوريا، قتيبة الشهاب، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٦ .

٩- الدروز، ماكس فون أوبنهايم، الطبعة الأولى، دار الوراق – لندن ٢٠٠٦

١٠- صراع بين الحرية والاستبداد، فارس الحناوي، الطبعة الأولى، دار علاء الدين – دمشق ٢٠٠٣ .

١١- تاريخ الثورة السورية الكبرى، محي الدين السفرجلاني، الطبعة الأولى، دار اليقظة العربية – دمشق ١٩٦١ .

١٢- الآثار في جبل حوران، على أبو عساف، الطبعة الأولى، مطبعة ألف باء الأديب – دمشق ١٩٩٧ .

١٣- العرب في سوريا قبل الاسلام، رينيه دوسو، الطبعة الثانية، دار الحداثة – بيروت ١٩٨٥ .

الصحف والمجلات

١- مجلة بيروت المساء، مذكرات سلطان الأطـرش، كـانون الأول ١٩٧٥ - يار ١٩٧٦ الحلقات:
١ و ٢ و ٢٣ .

٢- جريدة الثورة، العدد ١٣٢٦٠ ، ١٥ / ٣ / ٢٠٠٧

٣- جريدة القبس الكويتية، أعداد متفرقة - نيسان ٢٠٠٧

مواقع ألكترونية باللغة العربية

١- ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، أم الجمال ، http://ar.wikipedia.org

٢- القنطرة www.qantara.com

مواقع ألكترونية باللغة الإنكليزية

1. Wars of the world . www.onwar.com
2. Wikipedia، the free encyclopedia . http://en.wikipedia.org
3. Daily Mail 28th Feb.2007. www.dailymail.co.uk

المقابلات الشخصية

١- مقابلة شخصية مع الشيخ مسعود الهجري - قنوات ٢٩ /٥/ ٢٠٠٧

٢- مقابلة شخصية مع الشيخ حسن الهجري - قنوات ٨ / ٧ / ٢٠٠٧

٣- مقابلة شخصية مع الشيخ عقاب سليمان نصار- سالة ٢ / ٢٠٠٧/٨

٤- حديث مع السيد مزيد نصار - أم رواق ٦ /٨/ ٢٠٠٧

٤- مقابلة شخصية مع الشيخ أسعد حديفة - الكفر ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٧

٥- مقابلة شخصية مع الشيخ فوزي مرشد - الكفر ٢٣ / ٨ / ٢٠٠٧

٦- حديث هاتفي مع السيد مرسل الحناوي- سهوة بلاطة ٥ /٩/ ٢٠٠٧

٧- مقابلة شخصية مع السيد ماجد حامد - عرى ٧/ ١٠ / ٢٠٠٧

٨- مقابلة شخصية مع السيد فندي الأطرش -السويداء ٢٠/١٠/ ٢٠٠٧

٩- مقابلة شخصية مع السيد مجيد زهر الدين-الصورة الكبيرة ٢٨/١٠/٢٠٠٧

١٠- مقابلة شخصية مع السيد سلمان سالم الأطرش-أم الرمان ١١/١١/٢٠٠٧

١١ – حديث مع د. نسيب الأطرش – صلخد ١٤ / ١١ / ٢٠٠٧

١٢– حديث مع السيد عاهد غانم – المشنف ٣١ /١ / ٢٠٠٨



مذكرات غيرترود بل في جبل الدروز

في هذا الصباح تجمد الماء في خيمتي و قد صحوت قبل شروق الشمس لأهيئ نفسي و أرتدي ملابسي و الصقيع ينتشر من حولي بدأت يومي بنسخ الكتابات و النقوش التي رأيتها بالأمس ، كنت محظوظة لأن العديد منها كان مكتوباً باللغة اليونانية و واحد منها بالكوفية و آخر باللغة النبطية .

الله وحده يعرف ماذا تعني تلك الكتابات ، لكني سأحتفظ بها و العارفون بأمرها سوف يقرؤونها لي .